الجـزائـر وابن خلـدون : تأثـيرهـا فى حياتـــه ومقـدمتــه

● ضرورة اعادة قراءة ابن خلدون بمنظار جديد ، وروح جديدة ، ومنهجية علمية جديدة ، لكن فى الوقت نفسه أقرب الى عصره .

مولود قاسم نايت بلقاسم
الوزير لدى رئاسة الجمهورية
المكلف بالشؤون الدينية

بسـم اللـه الرحمن الرحيم ،

حضرات الاساتذة الافاضل ،

حضرات السادة والسيدات ،



انـه لشرف كبير لى أن ألقـى هذه الكلمة الموجـزة لاختتام أعمال ملتقاكم ·

فشكرا لكم على ما تجشمتم من مشاق السفر لاستجابة دعوة الجزائر ، وعلى ما بذلتموه من جهد فى التحضير ، وعلى ما قمتم به هنا من حضار ونقاش لخدمة العـلم، بمناسبة الذكرى المائوية السادسة لمقـدمة أبـى زيـد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون ، احد عباقرة هذا المغرب، والعالم الاسلامى بأجمعه، بل والانسانية كلها .

وان الجزائر التى درجت منذ استعادة استقلالها وسيادتها على الاحتفال بالرجال وآثارهم ، من جزائريين ، ومسلمين عامة ، وغيرهم،من مختلف القارات ، لجدير بها أن تتولى كبر (I) الدعوة الى الاحتفال بهذه المقدمة التى جمع كثير من عناصرها على أديمها، وألفت فى أرضها، وكان لها مع مؤلفها ذلك الارتباط الوثيق والصلة الوشيجة .

(*) كلمة اختتام الملتقى الدولى حول ابن خلدون والذكرى المائوية السادسة لمقدمته الذى عقد فى الجزائر العاصمة بتـــاريخ 20 رجب 1398هـ / 26 يونـيو 1978 م .

(I) كبـر (بالكسر ثم السكون) : مبادرة ومسؤولية فى لغة ابن خلدون ·

وتلخيصا لما قد يكون لا شك قيل هنا ـ ونحن في آخر الملتقى ـ ، عن هذه العلاقة الحميمة بين الجزائر وابن خلدون ، نذكر فقط بأنه هو نفسه قد أشاد مرارا، في تعريفه بنفسه، بأساتذته الجزائريين الذين لقيهم وأخذ عنهم سواء بتونس ، أو في فاس ، أو في تلمسان ، أو ببجاية ، مثل ابني الامام ، أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى ، من برشك (2) ، قرب تنس ، وأبي عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي ، « شيخ العلوم العقلية بالمغرب ، الذي شهد لي بالتبريز فيها » ، كما يقول ابن خلدون ـ ، وهو من تلمسان مولدا ومنشأ ، وأبي العباس احمد بن محمد الزواوي ، من بجاية ، وهو ، « إمام المقرئين بالمغرب ، وقد أجازني بالاجازة العامة » ، وأبي العباس بن ادريس ، كبير العلماء ببجاية ، وأبي عبد الله المقرى ، وهو جد المقرى صاحب النفح ، وأبي علي ابن باديس القسنطيني ، وغيرهم .

وكما درس على جزائريين ، فقد درس لهم أيضا في جامع القصبة في بجاية ، ومدرسة العباد في تلمسان .

وفي ميدان التجربة العملية في الجزائر ، فقد شارك عبقرينا في كثير من الحوادث ، والتقلبات ، والانقلابات ، (3) وكان وزير مالية في بجاية ، حيث تعرف على وديانها وجبالها ، « يجمع المغارم ، ويستوفي الجباية ، ويستخلص الاموال » . وكان فيها حاجبا ، اي رئيس وزراء ، « خلص له فيها الاستبداد » ، أي الحكم المطلق و «التصرف المنفرد في الامور » .

---

(2) برشك بلدة صغيرة اسسها اندلسيون ، وخربها سنة 1608 سيمون دانسر Simon Danser ، الذي جاء من بلجيكا ، واعتنق الاسلام وكان « رئيسا » بحريا ، واخذ اسم مراد رئيس ، ثم فر « بمدفعين برونزيين ممتازين » ، الى فرنسا وسلمهما للدوق دوغيز Duc de Guise في عهد حسين باشا في الجزائر ولويس 13 في فرنسا ، وتسبب في حرب بين فرنسا والجزائر ، ولم يرجع المدفعان الى الجزائر الا سنة 1628 . وقد ترك لنا اسمه محرفا على الحي المسمى بئر مندرايس . أنظر : Garrot : Histoire générale de l'Algérie وإنية وأصالة لصاحب هذه الكلمة .

وقد انتهى المشكل بين البلدين بعد مدة من عقد معاهدة تور Le Traité de Tours بين سنان آغا ، مندوب حسين باشا ، ولويس الثالث عشر ، ملك فرنسا ، سنة 1618، برجوع المدفعين ، كما ذكرنا ، سنة 1628 .

هذا وقد بنى الفرنسيون في العهد الاستعماري بلدة على موقع برشك وسموها : Francis Garnier ، وتسمى الآن بني حواء ، في نواحي تنس .

(3) أو « العيهات »، كما يقول هو .

وأخيرا ، وليس آخرا ، عندما مل وكل من كل بيعـة وهيعة ، وجـد فى الجزائر السكن (4) والسكينة ، اذ تزوج من قسنطينة زوجته الوحيدة ، حتى مات . وأم أولاده ، وخلا لنفسه للتفكير والروية فى بسكرة ، وتفرغ للدرس والعلم ، وعكف عى اجـراء القلم فى قلعة بنى سلامة قرب تيهرت (تيارت) مع أسرته ، « متفرغا عـن الشواغل كلها ، « عاكفا على تدريس علم ، أو قراءة كتاب ، أو إعمال قلم فى تدوين أو تأليف» ، مدة « أربعة أعوام » ، وشرع فى التأليف حتى أخرج لنا هذه « المقدمة على ذلك النحو الغريب الذى اهتديت اليه فى تلك الخلوة » ·

هذه بعض صلات ابن خلدون بالجزائر ، هذا العالم العبقرى الذى كان لكم جميعا شرف الاحتفال بمقدمته ، بتبادل وجهات النظر ، واستخلاص نتائج بحوثكم ، وإعمال فكـركم بشـأنها ·

ولئن اتفقتم كلكم فى الاشادة بعبقريته وابتكاره ، وأصالة عمله ، وجدة بحوثه ، وسبقه الى انشاء علم هام ، فقد اختلفتم واختلف معكم غيركم من غير الموجودين فى هذه القاعة حول طبيعة هذا العـلم الذى أنشـاه ، واسمه ورسمه ، بحسب اختـلاف تخصصاتكم واهتماماتكم ·

فلقد كنا درسنا وسمعنا حتى اليوم ان العلم الذى أنشأه ابن خلدون هو « عـلم الاجتماع ، قبـل أوغست كومت ، ومدرسة دور كـايم ، ومن سبقهما ، وعاصرهما ، ولحقهما ، وانه فعل ذلك كله أحسن منهم جميعا ، بل هو أول منشىء علم الاجتماع بحق ، وان علم الاجتماع اليوم لم يزد شيئا على ما قرره ابن خلدون » ، كما يـرى أستاذنا الدكتور علي عبد الواحد وافي ·

كما سمعنا أو قرأنا آخرين يقولون ان العلم الذى أنشأه ابن خلدون ليس عـلم الاجتماع ، السوسيولوجيا ، وانما علم الاجناس ، الاتنولوجيا ، أو علم الانسان ··· الانتروبولوجيا ، كما يرى صديقنا الدكتور عبد العزيز الحبابى ، فيما نذكر (5) ·

وها نحن اليوم نسمع أو نقرا لبعض الاساتذة الحاضرين فى ملتقاكم الموقر هذا ان ابن خلدون مهـد فى الواقع لانشاء عـلم الايديولوجيات أو المذهبيات السياسية ، البوليتولوجيا Science des idéologies أو Politologie ، كما يـرى

(4) بمعنى الزوجة والمعنى العام ·
(5) أنظر كتاب الملتقى السادس للفكر الاسلامى ـ الجزائر ·

الاستاذ جورج لبيكا ، Georges Labica ، حسبما قرانا فى الجرائد ، أو ، كما يرى الدكتور جيلالى سارى ، انه أنشأ جغرافية المدن والبوادى ·

ولاحدنا أن يقول ـ وقد يكون ذلك قد قيل قبل اليوم ـ ان ابن خلدون انشأ علم الحضارات وأعمار الدول ، وسبق بذلك أمثال طوينبي وآخرين بقرون ، ولنا أيضا أن نقول انه أول منشىء للطرق التربوية أو البيداغوجية ، بالنسبة لتدريس كثير من العلوم ، بناء على استقرائه للطرق المعمول بها فى عصره فيما شاهده فى البلدان التى مر بها أو عاش فيها ·

وبالنظر الى المدة الطويلة التى قضاها فى القضاء والتشريع فى مصر ، وهي تقرب من الربع قرن ، وما لمح به ، بل وفصله أحيانا ، من تجربته فى الميدان ، ألن يحق لاحد غدا أن يقول:ان ابن خلدون فيلسوف من فلاسفة التشريع والتقنين ، بعد تجربته الطويلة بالشرائع والقوانين ، والمشرعين ، والمقنين ، والمشرع أو المقنن لهم ، وما أبانه وانتقده ، ووضحه مما يتصل بمجموع السياق ؟

وآخرون قالوا انه مبدع اقتصادى ، مهد برأيه لنظريات هي الآن لا تزال موضع النقاش ، ومعمولا بها فى دول كبرى ، ومتوسطة ، وصغيرة ، وآخرون قالوا انه قال قبل دروين بنظرية النشوء والارتقاء ، وحكاية القرد كجد للانسان ـ مثل أستاذنا الدكتور وافي ، في تحقيقه للمقدمة وفى محاضرة له بالمركز الثقافى الاسلامى بالجزائر ·

ولعلنا اتفقنا هنا ان ابن خلدون لم يكن هذا أو ذاك فقط ، بل كان ذلك كله وزيادة · ولعل فى نتائج بحوثكم اليوم وبحوث من سبقكم ما يبعث على القول بما نادى به بعضكم هنا من ضرورة اعادة قراءة ابن خلدون ، بمنظار جديد ، وروح جديدة ، ومنهجية علمية جديدة ، ولكن فى الوقت نفسه أقرب الى عصره ، وتأخذ بالاعتبار كل تلك الظروف المكتنفة لحياته العلمية والعملية ·

واذ ذاك ربما وجدنا أنفسنا أمام عبقرى متعدد العبقريات ، وانه منشىء عدة علوم ، لا علم واحد ، وانه آخر ذلك الرعيل المتعدد الجوانب من أمثال ارسطو ، والفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وآخرين من قمم عصر النهضة الاوروبية وما بعدها مباشرة ·

حضرات الاساتذة الافاضل ،

انى اذ أجدد لكم مرة أخرى شكر الجزائر ، على ما قمتم به فيها من خدمة للعلم والعلماء ، أهنئكم بعملكم المثمر ، والى اللقاء فى فرص أخرى ·

والسلام عليكم

وصــــف مــدينـــــة قسنـــطينـــــة

حسب معلومات جديـــدة للقبطان هيبوليت الضابط
بهيئة أركان الحرب الفرنسية بتاريخ شهر مارس 1832

د· ناصر الدين سعيدونى
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر



لا يعرف عن صاحب هذا الوصف الا انه كان مـن الضباط المنتسبين لهيئة أركان الحرب الفرنسية العاملة بالجزائر ، والمتحمسين لشن هجوم على قسنطينة قصد الاستيلاء عليها ، وهذا ما نستدل عليه من سياق هذا الوصف الذى يحمـل امضاء هذا الضابط ، بتـاريخ شهر مارس 1832 ·

وقد أورد هذا الوصف مـع وثائق هيئـة أركان الحرب الفرنسية العاملة بالجزائر بأرشيف وزارة الحرب بفانسان ـ باريس ـ ضمن العلبة التى تحمل رقم 225 ·

أما مضمون هذا الوصف فانه يمس النقاط التالية :

1 ـ مدخل فى ست صفحات ، يتناول الامكانيات العسكرية والاساليب التكنيكية لباي قسنطينة (الحاج أحمد باي 1826 ـ 1837) ، مع ذكر بعض الشروط التى يجب أن يتوفر عليها الجيش الفرنسى المهاجم كالعتاد واللباس وغيره (ص 1 ـ 6) ·

2 ـ صفحة واحدة خصصت للوصف الطبيعى العام لاقليم قسنطينة (ص 7) ·

3 ـ سبع صفحات أخرى ، تتعلق بالمواصلات والطرق المزمع انشاؤها ، بعد اخضاع قسنطينة (ص 8 ـ 14) ·

4 ـ بعدها وصف لمدينة قسنطينة ، وذكر أماكنها الحصينة ونقاطها الاستراتيجية وذلك في تسع صفحات (15 ـ 23) ، وهذه الفقرة هي موضوع ترجمتنا هذه .

5 ـ ثم الاستعدادات المتعلقة بالهجوم على قسنطينة ، في أربع صفحات (ص 24 ـ 28) .

6 ـ مذكرة حول أحمد باي .

7 ـ معلومات تاريخية حول مدينة قسنطينة .

8 ـ اضافات تتعلق بالملكات الفرنسية بالقالة .

ومما يلاحظ على تقرير هيبوليت Saint Hyppolyte أنه يتألف من نسختين . نسخة أصلية مختصرة ومركزة ، تتعلق بوصف مدينة قسنطينة ، ونسخة ثانية تتضمن بالاضافة الى ما ورد في النسخة الاولى ، اضافات وشروحا اقتضتها التحضيرات الحثيثة للحملة الاولى ضد قسنطينة (نوفمبر 1836) .

هذا وقد رأينا من المفيد ترجمة الفقرات الخاصة بوصف مدينة قسنطينة اعتمادا على النسخة الأولى مع بعض الاضافات المقتضبة من النسخة الثانية ، وذلك حتى يتعرف القارىء الجزائرى على الوضع الطبغرافى ، والحالة العمرانية لمدينة قسنطينة عشية الاحتلال ، لا سيما وأن تحصينات المدينة ومواقفها الحربية لعبت دورا مهما في مقاومة القسنطينيين عبر التاريخ .

د.ناصر الدين سعيدونى

وصف مدينة قسنطينة للضابط هيبوليت سنة 1832

مدينة قسنطينة (سيرتا لدى القدماء وقسنطينة لدى العرب) عاصمة الاقليم أو البايليك الذى يحمل اسمها وهي واقعة على وادى الرمال خلف الاطلس التلي على مسافة 35 مرحلة جنوب غرب عنابة (1) . ومن المفروض أن سكانها يتراوح عددهم ما بين 25 و 30 الف نسمة من حضر ويهود وعرب (2) .

---

(1) على الطريق المباشر تقدر المسافة بـ 35 مرحلة بريد Lieues de poste بينما على الطريق التى سلكها الجيش الفرنسى عام 1836 ، تقدر المسافة بـ 40 مرحلة بريد . (هيبوليت)

(2) يوجد بقسنطينة 1700 منزل مغطاة بالقرميد و 8000 رجل قادرين على حمل السلاح ، ويقال بأن قسنطينة أقل اتساعا من الجزائر ، ولكنها أكثر مرتين من المدية . (هيبوليت)

أما موقعها فهو على شكل مدرج يرتفع فى الشمال الغربى عند سفوح جبل المنصورة الذى يفصله عنها انهدام متعرج تسلكه مياه وادى الرمال ، هذا الوادى الذى يرفده واد بو مرزوق الآتى من الجهة الشرقية ، فى المكان المعروف بدار الاقواس (الحنايا القديمة) ويبلغ طول وادى بومرزوق ما بين 7 الى 8 فراسخ (3) ·

وألى الشمال الشرقى لمدينة قسنطينة ينتصب جبل المنصورة فى اتجاه جنوبى شرقى الى شمالى غربى ، وهذه الجبال مع أنها جرداء من الاشجار الا أنه يمكن استغلال أرضها فى الزراعة حتى أنه يمكن مقارنتها من حيث الخصب بأراضى برج الرياح المقابلة لقسنطينة ·

ويقوم فى أعلى هضبة المنصورة نتوءان · احدهما شرقى يشرف على المدينة على بعد مرمى مدفع منها يتوجه ضريحان من أضرحة المرابطين يعرفان عادة بسيدى المبزوك · أما النتوء الثانى الواقع فى الشمال الغربى لهضبة المنصورة فيحمل اسم ضريح سيدى مسيد ، ومن هاذين النتوءين يمكن أيضا قنبلة قسنطينة ·

وألى الشمال الغربى من مدينة قسنطينة وعلى ألف متر من الاسوار ألتى تحيط بها توجد مرتفعات كدية عاتى ، وتطل على الجانب الآخر للمدينة حيث تتناثر عليها بعض القبور ·

أما شكل قسنطينة فهو اهليلجى ذو سطح مسق يرتكز فى أساسه على الانحناء الالتوائى الكبير المتجه نحو الجنوب الغربى فى خط يكاد يكون مستقيما ، وعلى مسافة يقدر طولها بخمسمائة متر من خط هذا الانحناء الكبير ، وضمن سور قديم يعلو ثلاثين مترا ، توجد ثلاثة أبواب:الباب الغربى الذى يوجد وسط هذا الخط المستقيم يعرف بالباب الجديد ، وتنتهى اليه طريق الجزائر ، والباب الاوسط يعرف بباب الواد ويؤدى الى الجنوب ، ويمكن ان يؤدى الى طريق الجزائر عند مسلك متفرع منه ، بينما الباب الثالث ويدعى باب الجابية فيتصل بوادى الرمال · وبين هذه الابواب الثلاثة تنتصب بطاريات المدافع المجهزة بأربعين مدفعا لتتصدى لكل قوة معادية تريد الاقتراب من المدينة ·

وعلى منحدر كدية عاتي المواجهة للمدينة ، وأمام الابواب الثلاثة توجد ضاحية قليلة الاتساع يسكنها الصناع ، وتقام فيها الاسواق ، وعلى بعد منها اسطبلات الباي

Lieux de cours (3)

مع بعض المساكن المتفرقة ، وبجوارها بعض الاضرحة والبساتين المحاطة بالسياجات والاســوار الصغيرة ·

أما باقى تحصينات مدينة قسنطينة فمتكون من أسوار قديمة بالية تستند اليهــا المنازل ، وان كانت كثيرا ما تجاوزت هذه المنازل فى علوها تلك الاسوار المستندة عليها على ان تلك الاسوار المنخفضة تشكل وسيلة دفاع ممتازة لانها مقـامة على حافــة الصخرة ، ويحف بها الجزء الاكبر من مجرى وادى الرمال السحيق ·

وبوجد بحافة جبل المنصورة باب رابع يعرف بباب القنطرة ، قبالة جسر مقــام على الوادى ، يصل بين حافتى الانغلاق الذى يفصل قسنطينة عن جبل المنصورة ·

وباب القنطرة هذا محصن بستة مدافع ، وتنتهى اليه الطرق الآتية من الجهـات الساحلية والشرقية لاقليم قسنطينة · وبجانب باب القنطرة ترتفع أسوار المدينة فى شكل منعرجات ، وهي فى حالة سيئة ، ويمكن ان يصل منها الى أعماق الخانق الذى يسلكه وادى الرمــال ·

أمــا القصبة فتوجد فى الزاوية البــارزة للمثلث الذى تشكله الاســوار بين باب القنطرة والباب الجديد فوق الصخور المطلة على الجزء الاكبر من المدينة على ارتفاع مائة متر فوق أعماق الوادى فى انحدار رأسى سحيق · وهذه القصبة عبارة عن بناء قديم فى شكل قلعة صغيرة محصنة بثمانية مدافع · كانت تستعمل بمثابة ثكنة للحامية .

ونذكر مــن جملــة تحصينات قسنطينة بطارية مدفعية ذات أربعــة مدافع هاون منتصبة فوق جبل المنصورة ، مع أن هذه البطارية كثيرا ما أكد بعض الاشخاص عدم وجودها فى هذا المكان (4) ·

---

(4) لقد هاجم التونسيون مدينة قسنطينة منذ حوالى ثلاثين سنة (يشير الى حملة حمودة باشا باي تونس على قسنطينة سنة 1807 ، المترجم) وبعد ان طوقوا المدينة من الجبة الشرقية نصبوا بطاريات المدافع بأعالى سطح المنصورة ، ولكن مــع ذلك لــم يتمكنوا من السيطرة على هضبة كدية عاتي ، نظــرا لمقاومة القسنطينيين الشديدة ، وتعرضهم للكمائن قرب المنازل والبساتين فى هذه الناحية ، ورغم أن طلقات المدافــع من سطح المنصورة بدأت تثير قلق المدافعين عن المدينة ، فان التونسيين فكوا الحصار وتراجعوا عن قسنطينة ، وذلك لتوقعهم وصول تعزيزات لنجدة القسنطينيين المحاصرين وبالفعل بعث باشا الجزائر امدادات مكونة من 2500 رجل عن طريق عنابة · =

أما وادى الرمال الذى يأخذ منبعه على مسافة خمسة أيام سيرا من قسنطينة فيمكن اجتيازه طيلة فصول السنة كلها · ولا يتعذر عبوره الا فى فترات نزول الامطار الغزيرة اذ يبلغ ارتفاع مياهه حينئذ أربعة أقدام ، فى حين لا يزيد عمقه عادة عن قدم أو قدمين فقط · وعلى حافة وادى الرمال اليسرى عند مشارف مدينة قسنطينة ، توجد سهول زراعية يحف بها جبل المنصورة من الجهة اليسرى · هذا ويشكل وادى الرمال عند بلوغه باب الجابية شلالاً من المياه ، يشرف على تجويف أرضى تنحدر اليه مياه الوادى لتظهر بعد ذلك من جديد وسط الخندق العميق ،

الذى هو عبارة عن خندق Fossé هائل يحاذى امتداد أسوار المدينة حتى حصن القصبة ، وهو بذلك يلف بأكثر من نصف المدينة ، على أن عمقه لا يزيد عن خمسين مترا وعرضه لا يتجاوز تسعين مترا ما بين بابى الجابية والقنطرة على أنه يزداد فى الاتساع بعد ذلك عندما يقترب من حصن القصبة ·

وهناك شلال آخر يعترض وادى الرمال عند مخرجه من الخانق فى أسفل المدينة تعلوه بعض مطاحن الحبوب وتنتشر عند حافته اليسرى البساتين ، بينما الحافة اليمنى يشرف عليها جبل المنصورة ·

وفى أعلى الصخور المقامة عليها المدينة يقوم حصن القصبة (5) ، ومنها يشرف على الباب الجديد وباب القنطرة · أما باقى الصخور فيقل ارتفاعها ما بين بابى القنطرة والجابية حيث ينمو نبات الصبار ويصبح من الممكن اجتيازها · وكذلك الصخور الواقعة ما بين بابى الجابية والواد · فهي قليلة الارتفاع ، وهي تعلوها الاسوار الحاجزة Rempart المزودة ببطاريات المدافع · ومع هذا فيمكن الوصول الى المدينة صعودا على الانقاض والنفايات التى تلقى من أعلى الاسوار بجوار سيدى ميمون ·

= وهكذا يتضح لنا من خلال هذه العملية الحربية مدى الخطر الذى يمثله احتلال سطح المنصورة على مدينة قسنطينة ، اذ من المؤكد أن تصبح قسنطينة تحت رحمة الطلقات الاولى للمدافع التى تنصب فوق سطح المنصورة ، ولهذا أرى أن أفضل هجوم قد يشنه الجيش الفرنسى على قسنطينة ، هو الذى يعتمد على اقامة جهاز هجومى فوق جبل المنصورة (هيبوليت) ·

(5) تنفذ بعض أحكام الاعدام فى المجرمين بالقائهم من أعلى حصن القصبة نحو أعماق الوادى السحيقة ، أما بقية أحكام الاعدام الاخرى فكانت تنفذ عادة عند باب الوادى · (هيبوليت)

5 janvier 1837

Description de la ville de Constantine

§ 4.

La ville de Constantine (Cirta des anciens, Cossamtina des Arabes) est la capitale de la province (le Beylik) qui porte son nom. Elle est située au delà du petit Atlas sur le Oued-Rumel, à 35 lieues de poste au S. O. de Bône(1). Sa population doit être de 25 à 30,000 âmes, maures et juifs (2). Cette ville est placée en amphithéâtre, s'élevant vers l'Ouest, dans une presqu'île contournée par la rivière et dominée par les hauteurs de Mansoura et de Sidi Mecid, dont elle est séparée par une grande et profonde anfractuosité, où coulent les eaux du Oued-Rumel (rivière de sable) qui au dessus de la ville, reçoit le Oued Boumerzoug, dans un lieu appelé el Kouas (les arceaux, aqueducs antiques). Ce ruisseau de 7 à 8 lieues de cours, vient de l'Est et aboutit à la rive droite du Rumel.

Au N. E. de la ville s'étend le plateau el Mansoura; il est dépouillé d'arbres et la terre est annuellement mise en culture. Ce plateau domine

---

(1) Par le chemin direct on compte 35 lieues de poste; par la route suivie par l'armée en 1836 il y en a 40, 3/4.

(2) Il y a 1700 maisons, couvertes en tuiles, et 8000 hommes capables de porter les armes, On dit Constantine moins étendue qu'Alger et deux fois grand comme Médéah.

ولقسنطينة ساحات عمومية عديدة ، لا يجـدر ذكرها لضيق مساحتها باستثناء ساحة واحدة فقط تقع بالقرب من باب القنطرة ، أما الشوارع فهي ضيقة ومتعرجة ، والمساجد جميلة ومزينة بالرخـام الجيد ، والثكنات كبيرة ، والاسواق رحبة ، والمخازن ضخمة تحفظ بها الضرائب العينية · ورغم أن خزينة الباي وثروات سكان المدينة يفترض أنها ضئيلة ، الا أنها تقيهم شر الكوارث التى تدبر ضدهم ، وهناك قصر الباي الواقع وسط المدينة الذى تتوسطه شجرة السرو الضخمة التى هي بمثابة سارية للعلم · وهو يتميز بقرميده الاخضر وببيوته الكبيرة المتصلة ببعضها ·

وعلى كل فان مدينة قسنطينة أقل امتدادا من الجزائر ، رغم أنها تكبر مدينة المدية بثلاث مـرات ·

ومما يذكر أن منابع المياه بقسنطينة منعدمة ، اذ لا يوجد داخلها الا قليل من صهاريج المياه ، ولهذا يتزود السكان بالماء من الوادى الذى يمكن الوصول اليه خارج أسوار بـاب الجابية بواسطة ممـر · على أن هناك المجـارى والعيـون متوفرة فى الجهات القريبة من قسنطينة ·

كما انه من الراجح أن الاقوات من الحبوب وكثير من الاصواف والزيوت مع كميات من التين متوفرة بقسنطينة رغم أنه لا يوجد داخل الاسوار مطاحن للقمح لان العديد منها يقع على ضفة وادى الرمال عند خروجه من قسنطينة ، أما ما يخص حطب التسخين ، ولا سيما خشب البناء فهو نادر جدا ، وهذا ما جعـل السكان يستعملون الفحم فى أغراضهم ·

أما ما يخص العتاد فان الباي أحمد لم يعد يتلقى ما يحتاجه من البارود من الداي بعد الاستيلاء على الجزائر · ولهذا أصبح يصنعه فى مدينة قسنطينة من ملح البارود المتوفر بالمغاور القريبة من المدينة ·

على أن المسافرين يرون أن الباي أحمد ليس له من الامكانيات ما يمكنه من صنع الاسلحة ، وان كان فى استطاعته اصلاحها والمحافظة عليها ·

امضاء هيبوليت
قبطان بهيئة اركان الحرب
مارس 1832



ONSTANTINE
Bab el Cantara
Bab el Djedid
Coudiat Aty
Redoute
606
Fontaine Thermale
el Bardo
Mesalla
el Retaba
Aqueduc
Route de Tunis
d'Alger
Route
de
Oued B
ruine
513
637
647
491
Echelle (1/10,000e)

مدينــــة أرزيــو

المهدى البوعبدلى
بحاثـة فى التاريخ ، ومكلـف بمهمة لـدى وزارة الشـؤون الدينية



عرفها أبو عبيد عبد اللـه ابن عبد العزيز البكرى فى كتابه « المسالك والممالك » الذى الفه حوالى سنة 460 هـ 1067 م · فقال « قلعة هوارة ويسمونها تسقدالت وهـي قلعة فى جبل لها ثمار ومزارع وتحت هذه القلعة يجرى نهر (I) سيرات وهو النهر الذى يسقى به فحص سيرات ، وطول الفحص نحو أربعين ميلا · ليس منه شيء الا يناله ماء هذا النهر الا انه اليوم غامر غير عامر ، ولاء أهـل لان الخوف أجلى أهله وفى ساحل هذا الفحص مـدينة أرزاو ، وهي مدينة رومية خالية ، فيها آثار عظيمة للاول باقية ، يحار من دخل فيهـا لكثرة عجائبها ، وبقرب مدينة أرزاو جبل كبير ، فيه قـلاع ثلاث مسورة رباط يقصد اليه ، وفى هذا الجبل معدن للحديد والزئبق ··· الى أن يقول ··· وبين مدينة ارزاو هذه ووهران أربعون ميلا » اه كلام البكرى ·

كما عرفها الادريسى فى كتابه : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى الفـه حوالى سنة 548 هـ ، الموافق لسنة 1154 م · فقال « ومن طرف مشانة الى مرسى ارزاو 18 ميلا ، وهي قرية كبيرة تجلب اليها الحنطة فيسير بها التجار ويحملونها الى كثير مـن البـــلاد » ·

(I) وهو المعروف بوادى المقطع حيث وقعت معركة الامير عبد القادر المشهورة مع الجيش الفرنسى تحت قيادة الجنرال تريزيل ·

فالبكرى عرف ارزاو التى بنيت على انقاض المدينة الاثرية التى لا زالت تحتفظ بآثار الفنيقيين والرومان ، وهي المعروفة الآن ببطيوة ، اما الشريف الادريسى فقد عرف بمرساها الذى كان يعرف دائما بالمرسى او بمرسى ارزيو ، وذلك فى العهد الاسلامى ، وادخل عليها التغيير بعد الاحتلال الفرنسى فقط ، فصاروا يطلقون اسم ارزيو على المرسى ، وفرنسوا ارزاو وأطلقوا عليها اسم (سانلو) الذى هو اسم قرية فرنسية بضواحى باريز

اما الاصل فى تسمية مدينة ارزيو فيقال انه اسم بربرى دخل عليه بعض التغيير ، اذ كانت فى عهد الرومان تسمى المرفأ الكبير Portus-Magnus (بورتوص مانيوس)

فى القرن السادس قبل المسيح Scylax ذكر الجغرافى اليونانى سيلاكس البلدة وموقعها الحالى الا ان اسمها اذ ذاك غامض ، فكل ما يعرف عنها اذ ذاك انها كانت من المراكز التجارية فى عهد سيرتا الشرقية وسيقا الغربية الفنيقيتين ، وقد اكتشف علماء الآثار مقبرة فنيقية وأوانى خزف ومعمل لتصبير الحوت ، أما الآثار الرومانية فان جلها الموجود الآن فى متحف وهران عثر عليها فى أرزيو خصوصا الفسيفساء التى تمثل صور الالعاب الرياضية كما لا زالت البلدة تحتفظ بكثير من البناءات والاسواق التجارية والشوارع والحمامات وقنوات المياه ٠

اما بطيوة التى تغلب اسمها على ارزيو حتى صار يطلق عليها الآن ، فان جماعة من قرية بطيوة الصنهاجية من ريف المغرب أي شماله هاجروا الى هذه الناحية واستقروا بها ، واختلف المؤرخون الذين اهتموا بدراسة هذه القرية فى تاريخ نزوحهم اليها ، فمنهم من قال بانهم وردوا عليها فى عهد أبى الحسن المرينى فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، وذلك ان الملك أبا الحسن المرينى كان له أحد القواد المشهورين يدعى محمد البطيوى ، اقطع لـه الملك المذكور هذه القرية وناحيتها خصوصا معدن الملح الذى كان بقربها — ولا زال — فجلب القائد المذكور بعض اقاربه وأفراد عشيرته ، ومنهم من ذكر ان أهل القرية أي بطيوة لجأوا الى الجزائر حوالى القرن العاشر الهجرى وبعد ان سكنوا مدينتى البرج (2) ومزغران انتقلوا الى بطيوة فى عهد الباي محمد الكبير فاتح وهران سنة 1206 هـ ٠ وهذا قول باطل اذ عثرنا على وثائق تدل على بطلانه ، وذلك ان احد علماء القرية يدعى الشيخ عمرو بن أحمد البطيوى السعيدى (3)

---

(2) نسبة الى قبيلة بنى سعيد التى تنتمى الى بطيوة وهي فى ريف المغرب ٠

(3) مدينة البرج قرب معسكر ٠

دفين مقبرة القرية القديمة (أي قبل الاحتلال الفرنسى) كان حيـا فى أواخر القـرن الحادى عشر الهجرى حيث وجدنا بعض الكتب نسخها بخطه سنة 1085 هـ وكثير من سكان القرية من سلالته ، كما أخبرنى الاستاذ البحاثة محمد العابد الفاسى محافظ مكتبة القرويين ان احد علماء بطيوة الجزائرية له تاليف يشمل جزءين على طـريقة احياء علوم الدين للغزالى وله فهرس ذكر فيه بعض اشياخه منهم ابن مـريم المليتى التلمسانى صاحب « البستان فى ذكـر العلماء والاولياء بتلمسان » وهو مـن علماء أوائل القرن الحادى عشر فتاريخ نـزوح سكان القرية يظهرانه ، كـان بعد استيلاء الاسبان على مليلية وسبتة ، بقي اتصال القرية الجزائرية بقبيلة بنى سعيد بـريف المغرب متواصلا طيلة هذه القرون الاربعة ، وقد كانت للقرية أهمية فى العهد التركى حيث اتخذت قاعدة لولى عهد باي وهران ، وبنى فيها الاتراك مسجدا جامعا ـ لا زال الى وقتنا هذا ـ وكانت بها محكمة رئيسية للقاضى وكان من قضاتها المتاخرين السيد أبو العباس أحمد بن الطاهر ، ذكره القاضى محمود ابن حواء فى مجموع الفـــه مسلم بن عبد القادر الحميرى كاتب بايات وهران توجد منه مخطوطة بالمكتبة الوطنية (بخط محمد ابن حواء المذكور نسخ سنة 1237 هـ) . بالجزائر تحت رقم 893 جمـع فيه محمود ابن حواء بعض القصائد لمسلم بن عبد القادر المذكور وسماه « نظم الجواهر فى سلك البصائر » وعندما ذكر بعض القصائد للمؤلف المذكور وتعرض للحديث عمه شرحها قال « ومنهم الفاضل الجليل الجامع بين كل تعظيم وتبجيل ذى المكارم والمفاخر أبى العباس أحمد بن الطاهر وهو الذى شرح العينية (العينية فى الغزل المتقاربة فى الاصداف الدرية) وقال فى موضع آخر (« وقد شرحها ـ أي العينية المذكورة ـ بعض العلماء وهـو الاديب أبو العباس أحمد ابـن الطـاهر قاضى أرزيو سنة 1237 هـ ») والقاضى أحمد بن الطاهر هذا هو الذى أخذ عنه الامير عبد القادر فى شبابه بارزيو اذ كان الامير على عادة طلبة ذلك العهد يسافر جلهم لقراءة القرآن أو العلوم بالنواحى البعيدة عن أهلهم وكان طلبة تلك النواحى يسافرون لطلب العلم وحفظ القـرآن الـى ناحية الغرابة ـ بين سيق وارزيو ـ وارزيو ، بقيت هذه العـادة سارية المفعول الى زماننا هذا ، رغم اندثار جل المعاهد التى كان يحفظ فيها القرآن ويدرس العلم ، كما كانت عادة سكان غريس ـ الى وقت قريب فى الخمسينات ـ الانتقال الى ناحية الغرابة

(3) مسـلم بن عبد القادر الحميرى الزائرى كان دفتـر دار بايات وهـران وكان معاصروه يصفونه بالوزير الاكبر ، توفى سنة 1294 هـ .

المذكورة حيث توجد المروج فيعزبون فيها ببقرهم وكثيرا ما يرافقهم أولادهم للالتحاق بمعاهد الناحية والامير عبد القادر قرأ فى بعض هذه المعاهد يعرف منها معهدان « أهل محمد » و « الرحامنة » لا زالا الى يومنا هذا ، وفى معهد الرحامنة لا زالت أسرة الفقيه الذى قرأ عليه الامير القرآن وقد ذهب اليه لما كان بدمشق ، وأقام بجواره مدة ، وله معه حكايات ، وللفقيه المذكور منظومة فى السهو ، نظمها باللغة الدارجة ، لا زال احفاده يحفظونها ويتناقلونها ولد عن والد ، ثم التحق الامير بارزيو (بطيوة الحالية) فاخذ عن قاضيها ابى العباس أحمد بن الطاهر المتخرج من القرويين ، وشاءت الاقدار انه لما تولى الامير الملكة ونقض الجنرال تريزيل معاهدة دو ميشال المبرمة سنة 1834 منع الامير كل اتصال أو معاملة تجارية مع الجيش الفرنسى المرابط بوهران ، وكانت الحراسة شديدة على الطرق المؤدية لوهران وذات ليلة القى الحرس القبض على جماعة تسوق اغناما ، وجدوهم من أقارب القاضى أحمد بن الطاهر ، فحملوه المسؤولية (4) ونقلوه الى معسكر حيث اتهم بموالاة الفرنسيين لخبر يطول فحكم عليه بالاعدام ونفذ فيه الحكم ، قيل ان الامير حاول ان يستبدل حكم الاعدام بغرامة مالية ثقيلة ، الا انه نظرا للظروف الحرجة التى كانت تجتازها البلاد حينئذ ضرب المثل لردع البقية ، وقد ذكر هذه القضية صاحب « تحفة الزائر » كما ذكرها بمزيد من التفصيل الجنرال بواي Boyer الذى عين قائد حامية وهران اذ ذاك وغيرهما خصوصا المؤرخين الفرنسيين (5) ·

قسم الفرنسيون بعد الاحتلال ارزيو الى قسمين القسم الاهلى الذى بني على انقاض المدينة الاثرية وكان عليه وحده يطلق اسم ارزيو عند الجغرافيين والمؤرخين القدامى والمتاخرين الى عهد الاحتلال الفرنسى ، واعطوا اسم السكان للمكان فسموه دوار بطيوة ، والقسم الثانى الذى بنوه مسامتا للقرية الاصلية اطلقوا عليه كما ذكرنا اسما فرنسيا وهو سانلو St Leu الا ان المسلمين حافظوا على اسم ارزيو وصاروا يطلقونه على القرية ، ولم يلتفتوا الى الرسميات ، ولما اطلق الفرنسيون اسم أرزيو على المرسى صار السكان يسمونها أرزيو الجديدة والقرية الاثرية ارزيو القديمة

---

(4) كان القاضى أحمد بن الطاهر هو رئيس القبيلة وزيادة على خطة القضاء كان يصدر الحبوب الى الخارج من العهد التركى ·

(5) تعرض الامير عبد القادر فى مذكراته التى كتبها بقصر امبواز ، واكتشفت منذ سنوات قليلة الظروف التى اعدم فيها استاذه المذكور ، وهي تخالف ما ذكره المؤرخون ·

الى زماننا هذا ، اما سكان البلدتين فلا زالوا يطلقون اسم ارزيو على قرية بطيوة واسم المرسى على أرزيو الحالية (5) كان لم يقع اي تغيير .

كان لسكان بطيوة صلة مع اقاربهم بالمغرب والهجرة بين البلدين لم تنقطع ، وقد حافظ الكثير منهم على أراضيهم ومساكنهم ومصاهراتهم ، وان معظم سكان القرية هنا يتحدثون بالبربرية خصوصا الكبار منهم الى يومنا هذا ، كما احتفظوه على عوائدهم فى الولائم والعادات والتقاليد ، وقد تعرض لتحليل سكان هذه القرية البطيويين كثير من كبار الكتاب الفرنسيين المعتنين بالدراسات البربرية ، منهم س· بيارناي S. Biarnay فى تاليفه : « دراسة لهجة بطيوة سكان أرزيو القديم » (طبع جوردان الجزائر 1911) وبربريقجير Berbrugger فى كتابه « الآثار بارزيو القديمة » بالمجلة الافريقية الجزء الخامس والسابع ثم احدثت فى الثلاثينات من القرن الجارى المسيحى ادارة خاصة للتنقيب على الآثار فى نفس المكان وكانت على رأسها الكاتبة الروسية الشهيرة فى ميدان الآثار الرومانية والفنيقية مالفا موريس فانسان Malva Maurice-Vincent وقد بدأت نتيجة عملها بنشر سلسلة مقالات فى المجلة الافريقية سنة 1935 ، وقد احدثت الكاتبة بمساعدة زوجها الطبيب الفرنسى بوهران موريس فانسان Maurice Vincent متحفا بنفس القرية وقد كان يتردد عليها كبار الكتاب وعلماء الآثار الجامعيين من الفرنسيين والاجانب ، وبقى عملهما مستمرا الى ان استقلت البلاد ، وبقوا بها ما يقرب من سنة ، ثم تكلفت بالمحل ادارة الآثار بالجزائر هذه فقرات تتعلق بتاريخ هذه القرية ذكرناها بايجاز .

ولنرجع الى الحديث عن الخلاف الذى طرأ فى النطق بها ، فان الجغرافيين القدامى كالبكرى والادريسى نطقا بها ارزاو بفتح الزاي وسكون الواو ، اما بقية الكتاب المسلمين فكانوا ينطقون بها ارزيو بكسر الزاي وسكون الواو ومنهم المؤرخ ابو راس الناصرى (1165 ـ 1237 هـ) فقد ذكرها فى معرض حديثه عن مصير اللاجئين الاندلسيين الذين لجأوا الى الجزائر بعد كارثة سنة 1018 هـ ، ونزلوا بمرسى ارزيو ، كما ذكرها الامير عبد القادر فى معاهدته مع دو ميشال المؤرخة فى فيفري 1834 ، فقد اتفق فى هذه المعاهدة ان تكون مرسى ارزيو هي مقر الصادرات والواردات من الحبوب

(5) ذكر بعض المؤرخين الفرنسيين ان السكان كانوا يطلقون على أرزيو الاثرية « أرزيو امسلم » تمييزا لها عن ارزيو الحديثة التى كان معظم سكانها أوروبيين .

كما ذكرها صاحب « الثغر الجمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى » بان ابراهيم قائد جيش الباي محمد بن عثمان وصهره كان بارزيو قبل احتلال وهران سنة 1206 هـ ·

وقد غير اسمها الفرنسيون فسموها بعد الاحتلال أرزو أي بضم الزاي رغم ان الكاتب دو صلان De Slane الذى ترجم « المسالك والممالك » للبكرى رسمها كما كانت فى الاصل أي ارزاو ، وقيل ان هذا التغيير طرأ على هذا الاسم بسبب تأليف القسيس الانكليزى شاو الذى أقام سنوات بالجزائر قبل الاحتلال بنحو القرن ··· حافظ السكان المسلمون على النطق بها كما نطق بها كتابهم فى العهد الاسلامى كما حافظوا على تسمية القرية الاثرية ارزيو القديم ، وأخيرا تغلب اسم بطيوة عليها واهمل الاسم الفرنسى ·

ولنرجع الى ذكر نبذة من تاريخ هذا البلدة كانت أرزيو أي المرسى مركزا هاما لاسطول الموحدين ثم لعبت أدوارا فى عهد دولة بنى زيان الذين اتخذوها مرسى للواردات والصادرات اللتى كان من أهمها الحبوب والمواشى والملح الذى يستخرج من معدن قريب منها حتى عرفت بمرسى بنى زيان ، وفى العهد التركى رغم قربها من وهران التى كانت تحت حكم الاسبان فانها حافظت على استقلالها ، وقد ساهم أسطولها فى الدفاع عن مستغانم التى هاجمها الكنت دالكادوت D'Alcadante والى وهران وصديق شارلكان الحميم حاول الكنت دالكادوت احتلال مستغانم مرتين ، وفى الثالثة لقى فيها حتفه (6) وخسر تسعة عشر ألف جندى نصفهم قتيل والنصف الآخر أسير ، كما امتاز سكان هذه الناحية بعدم خضوعهم للاسبان طيلة الثلاثة قرون التى بقى فيها الاسبان بمدينة وهران وامتد نفوذهم الى عدة نواحى وقد سجلت هذه البلدة فى أول عهد الاحتلال الفرنسى المعركة الخالدة التى خاضها الامير عبد القادر مع الجنرال تريزيل المشهورة فى كتب التاريخ بواقعة وادى المقطع ، (وقد اكتشفت مقبرة الشهداء منذ سنوات على حافة الوادى) ، المؤرخون الفرنسيون وعلى رأسهم الوالى العام بالجزائر متفقون ان الجنرال تريزيل هو الذى أداه غروره وطموحه الى تحدى الامير بمجرد ما عين قائدا على وهران خلفا لدو ميشال الذى أبرم المعاهدة مع الامير فى فبراير 1834 لخبر يطول ، ولما خاض أول معركة بنواحى سيق دامت ثلاثة أيام تحقق ان استخفافه بجيش الامير خلاف ما كان يتصوره

(6) مات دالكادوت فى واقعة مستغانم وفدى جثته ولده والى وهران ودفنها بكنيسة سانت دومينيك

فاختار طريق الانسحاب الى مدينة أرزيو ، وجعـل طريقه على وادى المقطـع فكانت الكارثة التى خسر فيها تريزيل كل عتاده ونحو 300 قتيل ووقع الهلع فى الباقى ففروا عراة هشاة الى أرزيو والامير وراءهم الى ان وصل بهم الى أبواب المدينة ، وقد اتفق جل مؤرخى هذه الواقعة ان الامير لو أراد لدخل البلدة ولاستسلم تريزيل وبقية جنده اذ لما وصلوا منهزمين ارسلوا الى وهران ليبعثوا لهم باخرة ينتقلون عليها ورفضوا الذهاب مشاة والمسافة قصيرة ـ ولتجنب الفضحة أرسل اليهم رائد مشهور ليقنعهم فى صـالح سمعة فيالقهم ، امـا الجنرال تريزيل فلم يسعـه الا الاعتراف بخطيئته وبغلطاته وهزيمته ٠

هذه صفحات من هذه الناحية التى شاءت لهـا الاقدار ان تصبـح بين عشيـة وضحاها مركزا لمنطقة صناعية عالمية ، وكل ما ننتظره ، هو ان لا يتسرع بعض الجهلة الى انشاء اسماء لبعض القرى لا صلة لها بالواقع التاريخى كالقرية القريبة من هذه المنطقة التى اطلقوا عليها اسم مرسى الحجاج ، وكان الفرنسيون يطلقون عليها اسم مرسى الدجاج Port-aux-Poules ـ وهي بـين وادى المقطـع وبطيوة كانت مـن المصايف المشهورة ـ وبعد الاستقلال ارتجل بعض المسؤولين المحليين اسم الحجـاج بدلا من الدجاج الا انه لم يقف عند اختياره اسما جديدا لم يعهد من قبل ، بـل أراد أن يظهر معلومات جديدة فى اللغة ، فلما كانت الكلمة باللغة الفرنسية يزاد فى آخرها سين للدلالة على الجمع ، فـزيد نفس الحرف ـ أي سـين ـ فى آخر الكلمة العربية لنفس الدلالة اذ صيغة الجمع غير كافية فاصبحت : « مرسى الحجاجس » وقد كتبت باحرف غليظة فى مدخل القرية ورغم أنها مكتوبة بالفرنسية وبالعربية الا ان سـين آخر الحجاج حير قراء العربية اما قراء الفرنسية فانهم لم يجدوا فى الكلمة ما يحيرهم

ميتافيـــزيقـــا علـــم الاجتمـــاع

د٠ عــلى عيسى
أستاذ علم الاجتماع
جامعة الجزائر



مــن تعاريف الميتافيزيقا أو الفلسفة الاولى بــالمعنى الارسطى انها بحر لا مركب لنــا فيــه ولا شراع ٠ وفى علم الاجتماع آثار أو بقايا ميتافيزيقية لا ترتبط بــواقع الحياة الاجتماعية اليومية بقدر ارتباطها بصورة الكون الشاملة التى هي موضوع الميتافيزيقا أو علم ما بعــد الطبيعة ٠

ويرى علماء الاجتماع المعاصرون أن هذه الآثار أو البقايا الميتافيزيقية العالقة بعلمهم والممتعــة كرياضة عقلية هي خير مــا يهدونه الى الفلاسفة للحفاظ عليها اذا شاءوا أو لزيادة امتاعهم العقلى ٠ ومن الحقائق أن علم الاجتماع يدين بقدر كبير من النظريات الاجتماعية لفلاسفة القارة الاوروبية ٠ ولسنا الآن فى صدد تقييم شــامل لهذه النظريات الفلسفية ومعرفة مدى مــا أفادت بــه فى تقدم العلــوم الاجتماعية أو تأخرها ٠ وانما سنختار مدرسة من مدارس عــلم الاجتماع الاوروبية وما اكثر هذه المدارس ـ لنحلل بعضا من الآراء التى تنادى بها ٠ ونبادر قبل طرح هذا الموضوع

بأن نبين وجهة نظر علم الاجتماع الحديث التى ترفض فكرة المدارس وتصر بحق على أن المدارس تصلح للفلسفة ولا تصلح لعلم الاجتماع المتغير فى نظرياته واكتشافاته تبعا لتغير المجتمعات والتوسع فى الدراسات الميدانية · وتؤكد فى نفس الوقت ان تفسير الظاهرة الاجتماعية قد تتطلب نظريات عديدة من التى تنسب الى اكثر من مدرسة من هذه المدارس (ومنها المدرسة البيئية والمدرسة البيولوجية والمدرسة النفسية وغيرها) ·

وتكمن خطورة فكرة المدرسة فى علم الاجتماع الى انها تنطوى على تعصب ومذهبية ولا يعرف العلم مثل هذه الاتجاهات الضارة بتقدمه · ان المدرسة التى أتعرض لها الآن هي مدرسة علم الاجتماع الفزيائى Ecole physico sociale التى تتجاوز الفيزياء الى ما بعدها – والتى كادت ان تظفر بالمكان الاول بين سائر مدارس هذا العلم فى القارة الاوروبية لولا ان تقدم الدراسات الاجتماعية الميدانية أو الحقلية فى بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية حال دون نجاحها ·

لقد شاهد الربع الاخير من القرن التاسع عشر صراعا عنيفا بين المفكرين فى بريطانيا والقارة الاوروبية حول السعى للحصول على الاولوية أو المكان المتميز فى علم الاجتماع · ففى هذه المرحلة نادى تايلر فى بريطانيا بأن الظاهرة الثقافية أو الحضارية تختلف عن الظاهرة الحيوية التى نولد بها من حيث انها خارجة عن كياننا ويفرضها المجتمع علينا · وذهب دوركايم فى فرنسا الى انها شيء خارج عنا وموضوعى · وأصر ، كتليه البلجيكى على ان يسمى علم الاجتماع ، علم الطبيعة الاجتماعية أو الفيزياء الاجتماعية وألف بهذا العنوان كتابا ضخما كما ألف فى موضوع (النسق أو النظام الاجتماعى والقوانين الطبيعية التى تحكمه) ثم وضع كتابا عنوانه : الانثروبولوجيا المترية أو قياس القدرات المختلفة للانسان · وفى كتابه علم الفيزياء الاجتماعية يقرر بناء على احصاءات دقيقة جمعها من المجتمع البلجيكى ان الناس فى مجتمعه ليسوا أحرارا فى ان يتزوجوا فى أي شهر يعجبهم ولا أن يولدوا أو يموتوا كما يشاءون · هذا ما استخلصه من دراسته ، ويقرر ان الاحداث الانسانية لا تختلف عن الاحداث فى الطبيعة الجوية · فكما ان للامطار موسما ولنزول الثلوج موسما ولهبوب الرياح مواسم فكذلك لميلاد الانسان وزواجه وأمراضه ووفاته مواسم لا تخطىء · واذا كان الضغط الجوى ظاهرة طبيعية فان الضغط الاجتماعى ظاهرة طبيعية كذلك · كلنا نحسها حينما تشتد علينا التقاليد وتضغط بكل كلكلها

لترسم لنا سلوكا معينا لا نستطيع أن نحيد عنه · ولقد رأى أدولف كتليه فى الفروق بين الافراد مجرد ابتعاد أو اقتراب من الفرد الاوسط المجـرد · وهو يستخدم (الفروق) لتعنى كل أنواع الفروق بما فى ذلك الفروق العقلية والفروق فى التفاعل الاجتماعى مع المجتمع · والفرد الاوسط هنا كالمادة الوسطى فى الطبيعة · فمثلا اي قطعة من الذهب نراها ، لا تمثل الذهب الاوسط المجرد ، وانما تبتعد عنه أو تقترب منه · وهكذا الامـر بالنسبة لاية مادة نجدها فى الطبيعة · ويمضى كتليه فى شرح نظريته قائلا انك لو أذبت كمية من الملح فى الماء تقل حدة الملح أو درجة ملوحيته كلما كثرت كمية الميـاه ، وقياسا على هذا وبنفس الكيفية يبرهن على أن تداخل الاجناس والسلالات البشرية على نطاق واسع داخل المجتمع يساعد على نشر صفات خفيفة لهذه الاجناس والسلالات تزول معها اشكالها الصارخة · وبذلك تتلاشى جميع آثار التفرقة العنصرية الحـادة بين البشر · ويمضى هذا المفكر البلجيكى فى الدفاع عن نظريته الفيزيو سوسيولوجية قائلا انه لو لم يكن عند الانسان الى جانب فروقه الفردية ذبذبات واهتزازات نفسيـة ما كان يستطيع ان يسوى مواقفه مع مواقف الآخرين ولظل باستمرار فى صراع دائم مع الغير · وبنفس الطريقة الفيزيائية تفسر العلاقة بين الصديق وصديقه وبين الزوج وزوجته وأولاده بأنها انجذاب اقطاب سالبة واقطاب موجبة نحو بعضها البعض ·

ومن قبل كتلية بقرون عديدة تعرض المفكر العربى عبد الرحمن بن خلدون لنظرية فيزيائية النمط ، ولكنه لم يتوسع فيها · اذ قال ان سلطة الحكم المركزى فى الدولـة تضعف كلما امتدت الى حدودها تماما كما تضعف الموجات الدائرية على سطح مـاء النهر أو البحر الهادىء كلما اتسع نطاقها بعد القاء حجر عليه · وكـان ابن خلدون بالطبع خالى الذهن عما يخبئه المستقبل مـن استخدام الموجات الاثيرية فى الاتصال المباشر والسريع بالمقيمين على الحدود وفى الاماكن النائية داخل الدولة ·

أما كيف نشأت فكرة الاجتماع الفزيائى فهي فيما يـرى الاستاذ روبير كوطـان البلجيكى فى كتابه (مدارس علم الاجتماع) المنطقى الاسلوب ، فان ذلك كان نتيجـة حتمية لتقدم العلوم الفيزيائية ابتداء من القرن السابع عشر على أيدى علماء الطبيعة أى الفيزياء المعروفين : نيوتن ، غاليلى ، ديكارت ، ليبنتز ، باسكال ، بيكون ، بويل ، وغيرهم · وجميعهم اسهموا فى الكشف عن القوانين الاساسية المتحكمة فى المادة · وترتب على هذا أن تساءل الناس عما اذا كان فى الامكان تطبيق هذه القوانين تطبيقا

كونيا شاملا لكل ما فى الكون . ومن هنا بدأ علم الاجتماع يدخل الميتافيزيقا التى لا مركب لنا فيها ولا شراع ...

واذا كان المجتمع قائما فى الطبيعة وجزءا منه . هكذا مضى التساؤل ـ أفلا يمكن أن يخضع الى نفس القوانين ؟ وفى هذه الحالة يكون الانسان ذرة فى المجتمع أو كائنا ميكانيكيا ـ وقد تخلى العلماء عن التطرف فى هذه الفكرة على أساس ان الانسان يمتاز عن الآلة بأنه حر . وقصروا التطبيق على المجتمع من حيث هو كذلك وليس من حيث كونه مجموعة أفراد . واعتبروا الظواهر الاجتماعية ليست بالضرورة انسانية وانما هي ظواهر تثير مشكلات تتعلق بتحولات المادة . وفى هذا الاتجاه وضع فورونوف كتابه : أساسيات علم الاجتماع سنة 1909 ووضع هاريت مؤلفه عن الميكانيكا الاجتماعية سنة 1910 كما أخرج بارسيلو بحثه الموسوم : محاولة لتأييد الميكانيكا الاجتماعية سنة 1925 ـ ومعنى ذلك كله ان الاتجاه الفيزيائى فى تفسير الظواهر الاجتماعية استمر حتى الربع الاول من القرن العشرين ولم تساعده ميتافيزيقيته على الصمود أمام الدراسات الحقلية أو المعملية .

ويجدر بنا أن نشير الى فرع من المدرسة الاجتماعية الفيزيائية اهتم علماؤه بما سموه تارة الطاقة الاجتماعية وتارة أخرى التفاعل الكيميائى . ويلخص هذا الاتجاه العالم ارنست سولفى سنة 1902 بقوله : لا يوجد فى عالم الاحياء ولا فى عالم الجمادات اية ظاهرة خالية من كمية معينة من الطاقة قابلة للقياس . ويذهب الى أن أول مظاهر الطاقة تبدو فى حلات التأكسد . وهذا التأكسد كما يراه هو السبب الاول للحياة . وكل المشاكل الانسانية يمكن ارجاعها الى رغبة الانسان الملحة فى البحث عن أفضل الوسائل للتأكسد . وفى رأيه أيضا ان الانسان يتغذى أو يقيم مسكنا له أو يغطى جسمه بالملابس استجابة للرغبة فى التأكسد ... والمقصود بالتأكسد ليس التفاعل مع الاكسجين بالمعنى الاصطلاحى فى علم الكيمياء ولكن ما يرمز اليه التأكسد عنده هو التفاعل مع مادة أخرى وتحولات الى مواد جديدة . فالاغتذاء تفاعل مع الطعام يحول الانسان الى شخص صحيح الجسم قادر على العمل . وبناء المسكن الخاص يشعر بالتملك ويحفز على العمل وارتداء ملابس معينة يعطى احساسا طبقيا أو مهنيا او حرفيا يجعل الانسان شيئا آخر . ويفسر الزواج أيضا بنفس الكيفية .

ولقد حاول علماء الاجتماع الفيزيائى الخروج من نطاق الفلسفة عبثا رغم بعض محاولات فردية كانت تظهر من وقت لآخر لجعله علما تجريبيا بمعنى الكلمة مثل

محاولات الميكانيكا الاجتماعية التى تنظر الى المجتمع على انـه حقيقة قائمـة بذاتها لا مجموعة أفراد ـ ونذكر من المحاولات المشار اليها واحدة ما يزال يقوم بها باصرار فى الولايات المتحدة الامريكية الدكتور وليم ماسترز تحت تاثير محاولات علماء بلجيكا (أنظر كتـابه : التفاعلات الجنسية Reaction sexuelles paris 1965 Robert Laffont الناشر للتـرجمة الفرنسية ·

ولقد أتيـح لنـا الالتقاء بهذا الباحث فى المراحل الاولى لمحاولاته منذ أكثر مـن خمسة عشرة سنة وكان يحيط مشاهداته وتجاربه بالكتمان لانـه بـدأ بدراسة أصعب علاقة اجتماعية تستعصى على الباحثين وهي العلاقة بين الزوج والزوجة والعلاقات الجنسية بصفة عامة ولم تنجح مثل هذه البحوث حتى الآن الا فى أمريكا ·

والنظرة السليمة انه ليس لدى العـلم الادلة الكافية على صحة عـلم الاجتماع الفزيائى واتباعه طرق العلوم التجريبية اتباعا صارما · وذلك لان موضوعه الانسان والمجتمعات الانسانية ولان الانسان ولو أن فيه جانبا ماديا كغيره من المواد الكونية الا أنه يمارس قدرا من حرية التصرف فى نفسه لا يوجد فى أية مادة أخرى · ويزودنا عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية البريطانى بالرأي السديد الآتى : ان مناهج العـلوم الطبيعية يمكن تطبيقها على الانسان فى حالات معينة ـ وهي كثيرة على كـل حال ـ ولكن ليس فى كل الحالات · وقـد وضع فى هذا كتابا بعنوان : (حول عـلم طبيعى لدراسة المجتمع) ولا يقصد منه أكثر من الدعوة لمنهج علمى طبيعى لدراسة المجتمع · وقد توصل الى بعض حتميات تشير الى ان المجتمعات الانسانية تسـير فى اتجاهات معنية ولا تسير فى غيرها ·

وملخص رأي العلماء فى القارة الاوروبية (وهذه العبارة تستبعد دائما علمـاء الجزر البريطانية) ممثلا فى النصوص التى أوردها روبير كوطان فى كتابه (المدارس السوسيولوجية أو مدارس علم الاجتماع) انه مما لاشك فيه ان الكون يسير طبقا لخطة مرسومة · وان تحركات المـواد والحياة والمجتمعات فيه تخضع للوحدة فيمـا بينها ولذلك يحاول العلماء ربط العلوم بعضها ببعض لتفسير هذه الخطـة الكونية وبصفة خاصة ربط العلوم الاجتماعية بالعلوم الطبيعية لاحكام التعرف على الظواهر الاجتماعية والتنبؤ بمـا سيحدث داخـل المجتمعات فى المستقبل ، عـلى نحـو التنبؤ بالظواهر

والتقلبات الطبيعية والجوية . ومع فشل هذه المحاولات التى أخذت آخر الامر طابعا ميتافيزيقيا يتجه علماء القارة الاوروبية الى عدم التخلى عن الفكرة نهائيا واعـادة الموضوع برمتـه الى حظيرة الفلسفة باسـم الميتاسوسيولوجيا أو ميتافيزيقا عـلـم الاجتماع ليضم الى الميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة واخضاع هذين العلمين الفلسفيين معا الى مبدأ كونى واحد .

مملكة سنغاي في عهد الاسيقين

1493 ـ 1591

تأليف
د· عبد القادر زبادية
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر



كان العرب المسلمون أول أمة توغل رحالتها ومكتشفوها فى مجاهل القارة الافريقية ، وتعرفوا بسكانها واوصلوا اليهم كل جديد فى ميدان الحضارة الانسانية ، وذلك منذ القرن السابع للميلاد ، وحتى نهاية القرن السابع عشر ظل الاوروبيون يجهلون كل شىء تقريبا عن داخل افريقيا ، باستثناء ما كانت تتيحه لهم كتابات الرحالة والجغرافيين العرب · وقد اطلق العرب على افريقيا الشرقية اسم (بلاد الزنج) فى حين أطلقوا على المناطق الغربية المحاذية لبلدان المغرب اسم (السودان) ، وكثيرا ما كانوا يستعملون هذا الاصطلاح فى صيغة الجمع مراعين فى ذلك اتساع المنطقة وتعدد قبائلها ، فيقولون (السوادين) (1) ·

ولما احتل الاوروبيون السودان الغربى وبلدان المغرب جميعها ، كادت تنقطع مجالات الاتصال بين الطرفين فى شكلها المثمر الذى كانت عليه فى القديم · ولم يكتف المستعمرون بالعمل على قطع تلك الصلة ، وانما راحوا يحاولون المس بالحقائق

(1) ينظر مدخل الكتاب كما اثبته المؤلف ·

التاريخية ذاتها ، فذهب الكثيرون من كتابهم الى التركيز على أن العرب بصورة عامة والمغاربة من بينهم بشكل خاص ، لم يكونوا الا تجارا للعبيد ومستغلين لشعوب السودان الغربي · وكما هي العادة في كل بلد يصير مآله الى التحكم المباشر له من طرف الاجانب ، فقد نشأت طبقة من بين السودانيين أنفسهم تدعو الى ما يدعو اليه غلاة الاستعمار من اعتبار حقبة الحضارة الاسلامية بالسودان الغربي فترة عارضة ، أما الاساس الذى يجب أن يعتنى به ، فهو عهد البدائية السابق للاسلام واعمال (التحضر) التى أدجلها المستعمرون منذ نهاية القرن التاسع عشر · وهذا هو أساس فكرة الزنجية التى تدعو اليها ، وتعمل على تعميقها واكسائها ثوبا فلسفيا بعض الفئات السودانية المتخرجة من المدارس الفرنسية ، ومن ورائهم جمع كبير من فلاسفة ومفكري الاستعمار الغربي فى عالم اليوم · والهدف واضح من وراء عمل الطرفين ، وهو يتلخص فى طمس الدور الهام للمسلمين والحضارة الاسلامية بالمنطقة · ولما استردت الجزائر شخصيتها وملكت مصيرها بنفسها ، كان من واجب الباحثين الجزائريين والمغاربة بصورة عامة أن يلقوا الاضواء على الدور الجليل للحضارة العربية وللمغاربة منذ القديم فى ربط الاتصال مع جيرانهم فى جنوب الصحراء والتعامل معهم لما فيه فائدة الجميع ·

وقد كان من أبرز آثار الحضارة العربية فى السودان الغربي ، هو مساعدة السكان على تخطى الشكل القبلى القديم ، وتأسيس ممالك لها صبغة وطنية ، وكانت امارة سنغاي التى تأسست منذ القرن الثامن للميلاد ، من أهم الامارات التى ظهرت فى غرب السودان ، وقد قيض لها فى القرن السادس عشر أن تصبح امبراطورية كبيرة ضمت تحت لوائها معظم شعوب غرب السودان ، وقد مثل عهدها هذا أوج ازدهار الحضارة الاسلامية فى الغرب الافريقى · وقد كان هذا هو الموضوع الذى اخترته لهذا البحث ·

وتعود بداية اهتمامى بالبحث فى تاريخ افريقيا الى وقت تخرجى من جامعة بغداد سنة 1961 · أما الحوافز فمصدرها عدة اعتبارات ، يتمثل الاعتبار الاول منها فى أن هناك حركة دائبة حاليا فى مختلف الجامعات العالمية ، لتقصى التاريخ الافريقى واستجلائه ، ولعل فى هذا ما يجعل مساهمة الاوساط الجامعية لدينا على درجة كبيرة من الاهمية ، خاصة وأن جامعة الجزائر توجد على أرض افريقية لا يبخل شعبها بشىء فى سبيل خدمة شعوب القارة الافريقية والمساهمة فى نهضتها · ومن هنا فان انشاء كرسى للدراسات الافريقية فى جامعتنا أمر تتطلبه المعطيات التاريخية

وحاجة التعاون الجزائرى ـ الافريقى فى الظروف الراهنة والمستقبل ٠

ويتمثل الاعتبار الآخر فى اعتقادى بأن من واجب الجامعة الجزائرية أن تساهم فى فرع مهم من النشاط الذى يتوالى الاهتمام به حاليا فى جامعات العالم ، وذلك مما يجعل منها عنصرا ايجابيا بين تلك الجامعات ، ويساعدها على التبادل والحركة ٠

واذا اجتزنا اعتبارات الحاضر ، فان الحوافز الاخرى لاهتمامى بأبحاث التاريخ الافريقى ، يتجسم قسم منها فى أن العرب فى ابان ازدهار حضارتهم ، هم الذين جابوا القارة الافريقية وكتبوا عنها ، وساهموا ما أمكنهم فى نهضة عدد كبير من الشعوب الافريقية وتحضرها ، والباحثون اليوم يكادون لا يجدون من الوثائق الهامة عن التاريخ الافريقى غير الكتابات العربية ٠ أما القسم الآخر من تلك الاعتبارات فيتمثل قبل كل شىء فى أن سكان المغرب العربى هم الذين أوصلوا الاسلام الى غرب افريقيا ، وكان لهم النصيب الاوفر فى التبادل التجارى والتعامل الثقافى مع سكانه ٠

ولا أزعم أن بحثى فى موضوع سنغايٍ على عهد الاسيقيين ، يؤدى أكثر من مجرد المساهمة فى الدخول بأبحاث التاريخ الافريقى الى مرحلة الشروع فى محاولات التعمق الكفيل باخصاب ميدانها ، فان جاء عملى يتناسب وهذا الحد ، فذاك هو هدفى منذ البداية ٠

ولعله من الواجب على أن أقر هنا ، بأن كثيرا من الصعاب اعترضت سبيلى ، ويتمثل قسم منها فى التعارض بين بعض الحقائق التى تزخر بها المصادر الاساسية ، وبين عدد من الآراء التى احتوتها المراجع الحديثة ، التى يبدو أن مؤلفيها غالبا يستوحون مبادىء ونظريات يظهر أنهم كانوا قد اعتنقوها مسبقا ، وتأثروا فيها ببعض الفلسفات السياسية المعاصرة لهم ، سواء فى افريقيا أو من خارج افريقيا ، وهذا مما يجعل مهمة الباحث النزيه عويصة فى التأكد من الصحيح ونبذ غيره ٠

وقسم من تلك الصعاب يتمثل فى أن الموضوع لم يكن قد طرق فى السابق من طرف المختصين الا بشكل عارض ، حيث ان أوسع الحالات التى عولج فيها كان كسرد سياسى لتاريخ سنغاي العام من حدود القرن السابع قبل الميلاد حتى القرن السابع عشر الميلادى ، وفى الغالب حصل ذلك من طرف أشخاص هواة للتاريخ وليسوا مؤرخين ، وهذا كله مما يجعل تجسيم كل ما يتعلق به فى شكل مستقل وقائم بذاته ، يتطلب المضاعف من الجهود والكثير من الاحتراز والتحري والاستقصاء ٠

والثابت أن الجانب السياسى الذى يعنى بحياة العترة الملكية فى سنغاي ، سواء فى عهد الاسقيين أو قبلهم ، قد طـرق معظمه ، امـا من طـرف المؤرخين القدماء أو الحديثين ٠ أما الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، التى تبين وضعية سكان المملكة ككل ، فلم تطرق من طرف المؤرخين المحدثين الا لما ما ، ولكن الاشارات اليها ، لا تعوز الباحث ان هو دقـق النظـر فى مختلف المؤلفات القديمة وأحاط بها ، وهذه الجوانب المغفلة هي التى اعتنى بها بحثى الحالى ، وسعى الى استجلائها وتجسيمها ٠ وان كنت لا أعد هذا الا جزأ من مهمة كل الباحثين ، فانى لا أريد أن أغفل ذكر الصعوبة التى اقتضاها منى استنطاق النصوص ، والاشارات ومقارنتها وتحليلها ٠

والواقع ان الابحاث فى موضوع التاريخ الافريقى قد تكاثرت منذ بداية الخمسينات من هذا القرن ، ولكنها فى معظمها لم تفتأ تعنى بـ (العموميات) ان صح التعبير ، ولم تكد تتجاوزها الى الابحاث الجزئية المتخصصة الا فى النادر اليسير ، وفى معظـم الحالات التى ظهرت فيها بعض الابحاث من هذا النوع الاخير ، انما غلبت عليها النزعة الى سـد الحاجة التى اقتضاها ظهـور الدول المستقلة فى افـريقيا خـلال السنوات الاخيرة ، ومن ثم فقد جاءت المؤلفات فى هذه الناحية ذات صبغة وطنية وعملية أكثر منها أكاديمية صرفة ، واعتمدت على الحكايات الشعبية والمصادر الغير مؤكدة أكثر من اعتمادها على الحقائق لذاتها ٠

وهناك قسم آخر منها كتبه أشخاص ربما كان همهم البحث لذاتـه ، ولكنهم فى الواقع ، كثيرا ما تحكمت فى توجيههم مآرب أو مبـادىء سياسية معينـة ، فجاءت أبحاثهم فى حالات عديدة ، لا تقنع الباحث النزيه ، ولا يستطيع ان يتغافل عما يلاحظه عليها مـن المآخذ (2) ٠

ان البحث فى صبغته الحالية ربما يكون الاول فى موضوعه ، وقد انطلقت فيـه من اعتبار أن الابحاث العامة فى التاريخ الافريقى ، قد توفرت بشكل أصبح فى الامكان معه القيام بالابحاث الجزئية المتخصصة فى عدة نواحى منه ، وموضوع أيام الاسيقيين

---

(2) مـن أوضـح الامثلـة فى هذا الميدان ، كتـاب تـاريخ افـريقيا لبييركورنوفان فبالرغم من أن الكتاب أطروحة جامعية ، الا أن المؤلف يتعمد طمس معالم الحضارة العربية ودورها فى افريقيا ، كما يعمد الى التشويه ، وافتعال عصور (مسيحية) فى افريقيا جنوب الصحراء ومجتمعات متأثرة بأوروبا ، وهذا كله قبل القرن 16 ٠

فى سنغاي هي محاولة من هذا النوع ، وان كنت لا أستطيع تقييم مدى الاهمية التى تمثلها هذه المحاولة ، فانى أريد أن أؤكد اقتناعى بأن الابحاث الجزئية المفصلة هى وحدها الكفيلة باغناء موضوع التاريخ الافريقى وتوسيع ميدانه ٠

أما النتيجة العامة التى انتهيت اليها فيمكن ايجازها فى أن سكان السودان الغربى قد أخذوا بالحضارة الاسلامية فى الوقت الذى أصبحت تسير فيه الى ضعف فى مواطنها الاولى الاصلية ، ويعتبر عهد الاسيقيين فى سنغاي أزهى عصور انتشار الثقافة العربية ـ الاسلامية ، فى السودان الغربى كله ، كما يمثل الفترة التى بلغ فيها ازدهار التبادل بين سكان السودان الغربى والعالم الخارجى أوجه ٠ وقد كانت مملكة سنغاي فى القرن السادس عشر أقوى الممالك الاسلامية فى المنطقة ، وبمثل ما يمكن اعتبار القرن العاشر هو عصر مملكة غانا فى السودان الغربى ، والقرن الرابع عشر هو عصر مملكة مالى ، فانه يمكن اعتبار القرن السادس عشر هو عصر سنغاي ٠

وقد كان المنهج الذى سرت عليه فى الكتابة هو عرض الحقائق لذاتها بعد تمحيصها بقدر الامكان ٠ وكان مما أدانى هذا اليه هو أن أهمل جميع المعلومات التى لا تؤيدها النصوص الاصلية أو الابحاث المستندة الى الحفريات أو الآثار المادية الملموسة وذلك دون أن أهمل الدلالة الاجتماعية كما كانت تقتضيها روح العصور ٠

وعلى هذا الاساس انتهيت مثلا الى ان الوظيفة الادارية كانت امتيازا طبقيا فى سنغاي الاسيقية ، كما أن مناصب القضاء والامامة التى كانت فى ظاهرها عملا دينيا واصلاحيا ، انما كانت تمثل امتيازا طبقيا أيضا ، وأن الوظيفة الدينية فى البلاد بالرغم مما كانت تظهر فيه من ثوب اصلاحى ، الا أنها لم تسلم من الوقوع فى خدمة الطبقية وامتيازاتها فى البلاد ، وتتجسم امامنا حقيقة ذلك فى أن الملوك كانوا شديدى الحرص على انتظام الوظائف الدينية وقبول نصائح أو استنكارات الائمة والقضاة حتى أمام العامة ، ولكنهم فى نفس الوقت الذى كانوا فيه يسعون جاهدين ، لنيل رضى رجال الدين والعلماء ، فانهم كثيرا ما كانوا يأتون فى سلوكهم الفردى من الاعمال ما لا يتناسب ومفاهيم الدين ٠

وفى هذا المضمار وجدت أن وصول الدين الاسلامى والعرب قد أديا للمنطقة التى حكمها الاسيقيون فوائد حضارية لا يمكن انكارها ٠ واذا كان بعض المؤرخين الحديثين يذهبون الى انكار الدور الحضارى للعرب فى السودان الغربى ، وتفسير كل فعالياتهم

فى المنطقة على أساس استغلالى فقد تـأكد لى أن هذا الـزعم لا يمثل الحقيقة بكـل جـوانبهـا (3) ٠

ومن ناحية أخرى فقد حاولت توسيع مضمون البحث حتى يعطى صورة شبـه متكاملة عن المملكة فى عهد الاسيقيين من جوانب عديدة ، وعلى هذا الاساس أدرجت فيه موضوعات يمكن أن تعتبر مبدئيا من مشمولات الجغرافيا البشرية مثل الزراعة والصناعة والحيوانات الموجودة آنذاك ، وطريقة الاستفادة فيها وأثر تلك الاستفادة فى حيـاه السكان ٠ ولكنى بحثت هذه الجوانب من ناحية اتصالها بحيـاة السكـان ونشاطهم ، فـلم تعـد نابية عن مشمولات التاريخ فى البحث ، وانما أصبحت جـزء هاما منهـا ٠

وقـد أعطيت للجوانب الحضارية والاقتصادية فى البحث الاهميـة التى أوليتها للجوانب السياسية ، وتطلب مني هذا أن أسلك فى الكتابة أسلوبا تحليليا ، حاولـت فيه أن لا أقتصر على مجرد الوقوف عند حدود سرد الوقائع التاريخية ، وانما سعيت الى العمل على تحليلها وتعليل دوافعها ونتائجها بقدر الامكان ٠

وقد حاولت أن أكتب عن شرائح السكان ، كما كتبت على الرؤساء والامراء ، وما ذلك الا لاعتقادى بأن الطريقة القديمة فى التاريخ ، قد أهمل أصحابها الجوانب الاكثر أهمية فى التاريخ ، وما أهملوه هو ما يبين وضعية السكان على كل مستوياتهم ٠ وعلى هذا الاساس تضمن البحث صورا عن تقاليد الحياة الاجتماعية ومعيشة السكان ككل ، فيما يخص الملبس ومستوى المعيشة والمسكن ، كما جسم صوراً عن حياتهم اليوميـة وطرق التعامل فيما بينهم ٠ وقد صادفتنى فى سبيل تضمين هذه الافكار فى البحـث صعوبات عديدة ، لان المصادر الاساسية كانت تعنى بحياة الرؤساء وسيرهم ، دون أن تأبه لغيرهم الا فى اليسير النادر ، ولكن الباحث رغـم ذلك يستطيع أن يصـل الى بعض النتائج الهامة اذا جمع الى استكناه اشارات المؤرخين القدماء توسيع مجـال المقارنة وتتبع مدلول الوثائق الفقهية وغيرها ٠ وقد أفادتنى هذه الطريقة فى الاهتداء الى بعض ما أغفل المؤرخون الاستفادة منه كما يجب ، مثـل الاسئلة التى كـان قـد

(3) من أبرز السائرين فى هذا الاتجاه دعاة الزنجية Négritude ويترعمهم فى ميدان التاريخ حاليا المؤرخ السنغالى أنتاديوب ، ومن أبرز مؤلفاته l'Afrique Noire Précoloniale ويتجمع حوله مجموعة من الباحثين فى هذا الاتجاه ، منهم نسبة هامة من الفرنسيين ، كانوا يعملون ضمن معهد IFAN للدراسات التاريخية فى السنغال ٠

وجهها الاسقيا محمد الكبير الى الامـام عبد الكـريم المغيلى ، واجابات هذا الاخير عليها ، وموضوعها الحياة الاجتماعية ، كما كانت عليه فى أيام الاسقيا الكبير ، ثم جاءت أجوبة المغيلى عليها لتزيدها توضيحا وشرحا (4) ٠

ولم أقتصر فيما كتبته عن تتبع الوضعية الداخلية وحدها ، وانما أفردت للعلاقات الخارجية والتجارة الخارجية فصلين ، حاولت فيهما أن أبرز صورة عن التأثر والتأثير كما حصلت عن طريق التجارة والاتصالات الخارجية على أيام الاسيقيين فى سنغاي ، وقد وجدت أن كثيرا من التجاوز قد ارتكب من قبل بعض المؤرخين ، فيما يتعلق بالاتصال الخارجى وأثره فى المملكة ، اذ من المعلوم أن ذلك الاتصال كان يحصل بالدرجة الاولى مع بلدان المغرب ومصر ، والمؤرخون الاوروبيون الا أقلهم وبعض السؤدانيين المحدثين أيضا كتبوا عن هذا الاتصال بين سكان السودان الغربى والشمال الأفريقى متأثرين بدوافع خاصة على ما يبدو ، فأهملوا الاسلوب الرزين فى بعض ما ذهبوا اليه ((5) ٠

ولقد كانت الحملة المغربية على سنغاي سنة 1591 تمثل كارثة حلت بالبلاد ، وكان لهذه الكارثة دوافعها لدى المنصور الذهبى ، كما كان فى الاوضاع الداخلية بالبـلاد آنذاك ما سهل أمام تلك الحملة ظروف النجاح ، فلم أغفل هذين الجانبين معا فيما كتبته عن حملة المنصور وظروفها ٠

وقد كان عهد الاسيقيين فى سنغاي ، تتمثل فيه المرحلة التى بلغ فيها انتشار الاسلام واستقراره بالمنطقة عصره الذهبى كما يقولون ، فحاولت أن تتجسم فى البحث الصورة الحقيقية لاوضاع السودان الغربى فى هذه الناحية ، وهذا ما بينته فيما كتبته عـن الثقافة والتعليم ومراكز الثقافة آنذاك ٠

---

(4) لحسن الحـظ ، فـان هذا المخطوط استطعت العثـور على نسختـين منـه ، وبمقارنتهما ، فـانى آمـل أن أقـدمه قـريبا للنشـر ، ثـم أخـيرا طبـع هـذا المخطـوط لـدى (ش٠ و٠ ط٠ ن٠ ـ الجـزائـر 1974) بتـحقـيق وتقديم الدكتور عبد القـادر زبادية ، ولـي اليقـين بأن ذلـك سيسـاهم فى تسهـيل مهمة الباحثين فى مجال العلاقات المغربية السودانية فى الميدان الثقافى ، الى جانب ما يحتويه من معلومات عن الحياة الاجتماعية فى السودان الغربى خلال القرن 16 ٠

(5) معظم الباحثين الفرنسيين ساروا فى اتجـاه لا تبدو عليه الرزانـة باستثناء أبحاث الاستاذ R. Money وعلى العكـس مـن ذلك يبـدو على دراسات الباحثين الانكليز مثل الاستاذ Fage والاستاذ A. Smith النزاهة العلمية ، وربما يعـود الفـرق بين الطائفتين ، للعـلاقة الخاصة للفرنسيين بمعظم شعوب افريقيا الغـربية ومحاولتهم تكييفها وطبعها بطابع له علاقة بالحاضر ٠

وقد وجدت أن السكان بعد انتشار مبادىء الاسلام بينهم وأخذهم بها بقوا محافظين على جانب هام من تقاليدهم القديمة ، وأبرز ما يتمثل لنا ذلك فى موضوع الفنـــون ، وكذلك تقاليد الجيش فبالرغم من أن جيش سنغاي كان أكبر جيش فى المنطقة خــلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، الا أن أساليبه فى التعبئة والتسلح ظلــت عتيقة حتى القضاء على المملكة ، فى سنة 1591 (6) ·

ولقد كانت ظروف الحياة التى ربما حتمتها طبيعة الاقليم فى أغلب نواحى البلاد ، قد جعلت مناطق الاستقرار الكبرى حــول النيجــر وروافده ، أو عند ملتقى القــوافل التجارية ، هي التى قــام سكانها بنصيب أوفــر فى المبادرات الحضارية ، وهذا مــا حاولت أن أبرز صورة عنه فى الفصل الذى خصصته للحديث عن مراكز الحضارة ·

وقد وجدت لدى بعض المؤرخين انحرافا عن الواقع أحيانا ، ولعل أبرز ما يظهر لنا ذلك الانحراف فى ربط طراز الهندسة المعمارية فى السودان الغربى بأوروبا (7) ، وفى هذا ما ينفى عن سكان المنطقة كل طابع للاصالة ، كما أن فيه ما يخالف الحقيقة المتمثلة فى ان التأثر الاول فى هذا الجانب ، قد كان مبعثه بلاد النوبة قبل غيرها ، ثم تلاه التأثير الذى انبعث من بلدان المغرب ومصر ·

وفى جميع فصول البحث حاولت أن انتهى الى استنتاجات تجسم اقتناعى بمــا وصلت اليه فى موضوع كل منها ·

ثم أنهيت البحث بخاتمة عــامة أبرزت فيها الاتجاهات التى ســـار عليها بعض المؤرخين الذين اشتهروا بكتاباتهم فى موضوع تاريخ افريقيا الغربية ، والافكار التى جاءوا بها فى موضوع سنغاي بالذات ، ثم ضمنتها أخيرا النتائج التى توصلت اليها فى موضوع البحث كــكل ·

وعلى العموم فقد حاولت الاحاطة بتطور المملكــة ونظمها فى الفترة بــين 1493 و 1591 ، ما أمكننى وهذا بعد أن خصصت فصلا فى البداية أوجزت فيه أهم الوقائع عن تطور المنطقة قبل 1493 وذلك حتى يكون مضمون البحث واضحة معالمــه السابقــة للدراس ، ورغم هذا كله ، فانه لا يمكن القول بأن كل شىء عن سنغاي فى عهد الاسيقيين قد احتواه البحث حتى فى خصوص المواضيع التى تطرقت اليها · وانما يمكن القول

---

(6) من الثابت أن جيش مملكة البورنو كان قد اقتنى الاسلحة النارية ، فى حــين لم يفعل ذلك جيش سنغاي ، وهذا ما سهل على حملة المنصور مهمتها ·

(7) من أبرز من ساروا فى هذا الاتجاه المجانب للحقيقة المؤرخون المتشبعون بفكرة الزنجية وفى مقدمتهم Anta Diop.

بأن كل فصل فيه ، قد اشتمل على جانب هام من الحقائق المتعلقة به ، ومن ثم فـانه لا يزال امام الباحثين بذل الكثير من الجهود الخلاقة · وان الدافع على هذا القول ، هو اعتقادى بأن موضوعا حينما يطرق لاول مرة ، على أساس أكاديمى صرف لا يمكن ان يبلغ من التعمق الدرجة الكافية ، مهما كانت الجهود التى بذلت فى تحضيره · ورغم ذلك فانى أريد أن أسجل اقتناعى بأنه من الآن فصاعدا ، لا يبدو أن مهمة الباحث فى هذا الموضوع يمكـن أن تقتصر على تحرى الحقائق وجمـع المعلومات مـن المراجع والمصادر المعروفة فقط ، اذا ما أريد لهذه المهمة أن تسفر عـن جديد بمعنى الكلمة ، وانما يمكن لها أن تأتى بجديد فعلا ، اذا انصرفت الى ميدان البحث الاثرى ، اذ الواقع أن كثيرا من المعالم الاثرية فى المنطقة التى قامت فيها المملكة لا تزال تحتاج الى جهود من المختصين ، ونعتقد أن عملا من هذا النوع ، اذا تصدى له باحثون مجدون فانهـم سيصلون الى نتائج يحمدون عليها بدون شك ·

واذا كانت جهودى لم تمكنى بأكثر مما احتوته صفحات الرسالة فكل ما أرجـوه هو أن تكون محاولتى الاولية هذه ، بمثابة لبنة صغيرة يمكـن للباحثـين أن يستندوا عليها لينطلقوا الى مجالات أرحب وأعمق ، تفيد أبحاث التاريخ الانسانى فى منطقـة لا يزال تاريخها فى حاجة ما سة حقا الى جهود الباحثين النزهين ·

واخيرا فانى أريـد أن الفـت الانتباه فى هذه المناسبة ، الى مـدى الحاجة التى يقتضيها واقعنا التاريخى والجغرافى فى الماضى والحاضر ، فادعو لتأسيس معهـد للدراسات الافريقية ببلادنا ، ففى كل من القاهرة ورومـا ولشبونة ولنـدن ، توجد معاهد من هذا النوع ، وتوجد فى بلدان أخرى مؤسسات مشابهة ، وكلها تقوم بنشاط أثبتت جميع الوقائع فائدته ، سواء لتلك البلدان أو لفائدة تمتين وتوسيع العلاقات التى تربطها ببلدان افريقيا النامية ، وليس هنا مجال الاطناب فى ذكر الفوائد التى تنجم عن انشاء مثل هذا المعهد ببلادنا ، اذ يكفى أن نجمل ذلكفيما هو معروف للجميع مـن أن الجزائر لا تبخل بشىء فى خدمة القارة الافريقية ككل ، والمساهمة فى ترقيتها وتحريرها ومن ثم فهي معنية مباشرة بالمبادرة الى تأسيس معهد للدراسات الافريقية ببلادها ، ولي اليقين مسبقا ، فى أن ذلك المعهد اذا ما أسس ، فستتمخض عن تأسيسه نتائـج ايجابية ، وسيلمس الجميع فوائده العديدة فى كثير من المجالات ·

العــرف وأثــره عــلى التشريـــع
فى الفقـــه الاســلامى

محمد سعود المعيني
معهد اللغة والادب العربى
جامعة قسنطينة



مقــدمــة :

ان المصادر التى تستقى منها الاحكام الفقهية ، ترجع الى ما جاء عن طريق الوحي أصلا أو تبعا ، فالقرآن من عند الله بلفظه ومعناه ، والسنة هي اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، عن حكم الله تعالى ، لانه لا ينطق عن الهوى . والاجماع يرجع تبعا الى ذينك المصدرين ، فلابد له من سند شرعى من القرآن والسنة .

وما عدا ذلك مجرد امارات ترشد العقل الى استنباط الحكم الشرعى .

وبناء على ذلك تكون المصادر كالآتى :

I ـ المصادر الاصلية ، وهــي :

I ـ القرآن الكريم : وهو الكتاب المنزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، لفظا ومعنى ، المكتوب فى المصحف ، المنقول الينا متواترا ، باللسان العربى .

ولاخلاف أن القرآن حجة على الجميع ، وهو المصدر الرئيسى للشريعة الاسلامية وهو يفيد القطع من حيث الثبوت ، ويجب العمل به ، ولا يعدل عنه لغيره ٠

أما من حيث دلالته على الاحكام ، فـانه يكون قطعيا ، اذا كان اللفـظ لا يحتمل التأويل ، ويكون ظنيا اذا كان يحتمل التأويل ٠

وقد اشتمـل القرآن على أحكـام كثيرة ، يمكن حصرها بثـلاثة أقسام ، هـي : العبادات ، والاخلاق ، والمعاملات ٠

2 ـ السنة النبوية : وهي ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مـن قـول ، أو فعـل ، أو تقـرير ٠

وهي الدليل الثانى بعد القرآن . وهي واجبة الاتباع عند الجميع ٠ ودلالة السنة على الاحكام قطعية ، اذا كان اللفظ لا يحتمل التأويل ، ومقطوع بثبوته عـن الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ والا فانه يكون ظنيا من ناحية الدلالة ، أو الثبوت ، أو هما معا .

والسنة تبين مجمل القرآن ، وتقيد مطلقه ، أو تخصص عامه ، أو تضيف حكمـا جديدا ، أو تعاضد ما ورد فى القرآن ٠

والسنة أنواع ، المتواترة ، والمشهورة ، وسنة الآحاد ٠

2 ـ المصادر التبعية النقلية : وهي التى اعتبرها الشارع دليلا مرشدا يهتدى به المجتهدون للتعرف على حكم الله تعالى ، وهي :

1 ـ الاجماع : وهو اتفاق المجتهدين من الامة الاسلامية فى عصر من العصور على حكم شرعى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاذا انعقد الاجماع الشرعى ، كان دليلا قاطعا ، وحجة ملزمة للمسلمين ، لا يجوز الخروج عليه ، وهو على قسمين :

صريح : وهو ما صرح به المجتهدون ٠

وسكوتى : وهو أن يبدى المجتهد رأيا فى مسألة ثم يسكت الجميع عنها ، دونما مـانع من ابداء الرأي ٠

2 ـ شرع من قبلنا : وهي الاحكام التى شرعها الله تعالى لمن سبقنا من الامم ، وذكرت فى الكتاب والسنة ، فما قام الدليل بنسخه فهو منسوخ فى حقنا ، وما قـام الدليل باعتباره فهو حجة ملزمة ٠

3 ـ قول الصحابى : والصحابى الذى نبحث فى حجية قوله ، هو من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وغزا معه ، واشتهر بالفقه والتقوى وتوافرت لديه الملكة الفقهية

وقول الصحابي لا يلزم صحابيا آخر · أما بالنسبة لغيرهم ، فهو اذا لم يعارض كان حجة ملزمة · اما اذا كان مختلفا فيه ، فلا يترك ، وانما يتخير فيه ، ويقدم على القياس ·

4 – العرف : وهو الموضوع الذى سأتكلم عنه بالتفصيل فى موضعه ·

3 – المصادر التبعية العقلية ، وهي :

1 – القياس : وهو الحاق امر لا نص فيه ولا اجماع ، بامر منصوص على حكمه ، أو مجمع عليه لاشتراكهما فى نفس العلة التى شرع الحكم من أجلها ، فالمراد من القياس هو اظهار الحكم ، لا انشاء الحكم والقياس مرجعه الكتاب والسنة ، وما هو الا الغوص فى أحكامهما ·

2 – الاستحسان : وهو العدول عن قياس وضحت علته الى قياس خفيت علته ، أو الى دليل آخر ·

أو عدول المجتهد عن حكم كلي ، الى حكم استثنائى لدليل رجح لديه هذا العدول ، وقد يكون الاستحسان مستندا الى نص أو اجماع ، أو عرف ، أو مصلحة ·

2 – المصلحة المرسلة : وهي جلب المنفعة ، ودفع المضرة ويشترط فيها أن تكون حقيقة عامة ، وأن لا تتعارض مع نص شرعى ثابت ·

4 – سد الذرائع : والذرائع هي الوسائل التى تؤدى الى الحرام · فاذا كانت الوسيلة مفضية الى ما هو محرم حتما ، كانت محرمة منعا لمنابع الفساد ·

3 – الاستصحاب : وهو عبارة عن ابقاء الحكم الثابت فى الماضى على ما كان عليه واعتباره موجودا مستمرا الى أن يوجد غيره أو يرفعه ، وهو آخر مدار الفتوى .

وهذه الادلة لا تنشىء حكما جديدا ، بل تكشف عن الحكم الشرعى ·

العرف

تعريفه :

العرف فى اللغة ضد النكر · يقال أولاه عرفا ، أي معروفا ، والعرف أيضا : الاسم من الاعتراف ، وقد يطلق على عرف الفرس (1) ، وهو الشعر على محدب رقبة الفرس ·

(1) مختار الصحاح مادة عرف ·

وقد يطلق ويراد به الامور الحسنة · قال الحطيئة :

مـن يفعـل الخـير لا يعـدم جوازيه　　لا يذهب العرف بين اللـه والنـاس

ويطلق على عرف الديك (2) ـ وهو اللحمة المستطيلة فى أعلى رأس الديك ·

وهو من مادة عرف (بكسر الراء) ·

ومن هذا يفهم أنه المشهور الذى لا يخفى ·

اما فى الاصطلاح ، فقد ذكرت له تعريفات كثيرة أهمها :

1 ـ هو ما استقر فى النفوس من جهة العقول ، وتلقته الطبائع السليمة بالقبول (3).

2 ـ هو ما ألفه المجتمع واعتاده وسار عليه فى حياته ، من قول ، أو فعل (4) ·

3 ـ هو عادة جمهور قوم فى قول أو فعل (5) ·

4 ـ العرف ما تعارفه الناس وساروا عليه من قول أو فعل أو ترك (6) ·

والمتأمل فى هذه التعريفات ، يجد أن الاتفاق يكاد يكون موجودا بينها على القدر المشترك ، وهو الاعتياد من قبل قوم ، ثم الظهور والتعارف ، بحيث يفهم بالتعامل ، أو التكلم ، أو الادراك ·

ويعتبر التعريف الثالث من خير التعريفات لو انه وضع مكان كلمة (عادة) مـا تعارفه ، وذلك لان العادة جنس اعم تندرج تحتها أنواع من بينها العرف ، ثم كلمـة عرف أقرب للمعنى اللغوى من كلمة عادة ، حيث أنها مأخوذة من العود ، والمعاودة بمعنـى التكـرار ·

نسبـة العـرف للعـادة

ان نسبة العرف للعادة هي نسبة العموم والخصوص والمطلق ، فكل عرف عادة ، وليس كـل عـادة عـرفا ·

---

(2) المنجد مـادة عـرف

(3) أنظر رسائل بن عابدين ص 42

(4) الوجيز فى أصول الفقه زيدان ص 240

(5) الفقه الاسلامى فى ثوبه الجديد ص 557

(6) أصول الفقه خلاف ص 99

فالعادة جنس أعم ، تشمل العادات الشخصية الفردية كزيارة المريض مثلا ، أو التمرين الرياضى بعد النهوض من النوم مبكرا · وقد تكون العادة مشتركة ، الا أنها لم تبلغ حد التعارف للعمل بها · ومثال ذلك خروج القاضى من محله الى بيت أهل الزوجة ، لاجراء تسجيل العقد بعد دفع الرسوم المطلوبة ·

وقد تكون العادة قهرية تشمل جميع الناس ، الا أنها ليست عرفا لخلوها عن عنصرين مكوننين للعرف ، هما العقل ، والاختيار ، وذلك مثل البلوغ على اختلاف البيئات والحيض ، وغير ذلك مما لا يدخل تحت تفكر الانسان واختياره ·

وقد تكون العادة عرفا ، وهو ما نتكلم عنه ·

فالعرف اذا هو ما تعارفه جمهور قوم ، من قول أو فعل ، أو ترك · ومعنى هذا أنه متفكر به مع الاختيار ثم الفته الطباع السليمة ·

العرف والاجماع

من تعريف العرف يتضح أنه يخالف الاجماع لغة واصطلاحا وموضوعا · فالاجماع فى اللغة العزم · وفى الاصطلاح : هو اتفاق مجتهدى أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فى عصر من العصور على أمر شرعى دينى ، ولا عبرة بما تعارفه جمهور الناس ·

اما العرف ، وهو ما تعارفه جمهور قوم ··· دون النظر الى أنه حكم للشارع ، وهذه هي نقطة افتراقه عن الاجماع والتقائه مع المصلحة التى حملت اليه ·

ومن ذلك نفهم أن موضوع العرف هو الظاهرة الاجتماعية ·

تقسيمات العرف

للعرف تقسيمات مختلفة بالنظر لاعتبارات مختلفة ، وهي كالآتى :

1 ـ يقسم العرف باعتبار مشروعيته الى صحيح ، وفاسد : العرف الصحيح ·

وهو ما تعارفه الناس ، ولم يدل دليل من الشارع على فساده وبطلانه ، ولم يعارض نصا صريحا بكل وجوهه · ومن ذلك البيع بالتعاطى ، وتقسيم المهر الى معجل ومؤجل ، وقبض المعجل قبل الدخول · فقد تعارفه الناس وأجروا جل فتواهم على مقتضى العرف فى هذه المسائل ·

قال ابن عابدين : « هذا كله صريح فيما قلنا : من العمل بالعرف ، ما لم يخالف الشريعة كالمكس والربا » (7) ·

العرف الفاسد :

وهو ما تعارض مع النص ، وذلك ، مثل جلب الراقصات وتقديم الخمور فى المناسبات ، وتعامل الناس بالربا ، وجعل الفاكهة الممتازة اعلا الصندوق ، لايهام المشترى · فكل ذلك عرف فاسد ، لم يقل به أحد ، لان المسألة المنصوص عليها ، والتى ثبت لها حكم شرعى ، فتغيرت عادة الناس فيها ، من استحسان الى استقباح ، أو من استقباح الى استحسان ، لا يتغير حكم الشرع فيها ، فالحرام ، حرام لو استحسنه جميع الناس ·

قال الشاطبى : « لو صح مثل هذا لكان نسخا للاحكام المستقرة المستمرة ، والنسخ بعد موت النبي باطل ، فرفع العوائد الشرعية باطل » (8) ·

وعليه فليس كل ما تعارفه الناس ينظر اليه بعين الاعتبار · والمقياس فى ذلك ، هو النظر الى كل ظاهرة اجتماعية من زاوية الشرع ، فما خالف احكام الشريعة كان فاسدا · وما وافقها كان صحيحا ، وكذلك فيما لا نص فيه ·

2 ـ ويقسم باعتبار المتعارفين عليه الى عام وخاص :

العرف العام :

وهو ما تعارفته الامة كلها من غير نكير ·

قال الرضي : وتعامل الناس من غير نكير أصل من الاصول كبير ، من ذلك الاستصناع (9) ·

وهذا التعامل حجة يترك به القياس ، ويخص به الاثر (10) · ومن ذلك ظاهرة التدخين ، وشرب المرطبات غير الكحولية · ودخول الناس للحمام دون تحديد كمية الماء المستهلك · ومثل هذا العرف هو المنظور اليه فى تشريع الاحكام ، وهو الذى يمثل ظاهرة اجتماعية عامة ·

---

(7) رسائل ابن عابدين ص 46

(8) الموافقات ص 284

(9) المبسوط ح 12 ، ص 128

(10) رسائل بن عابدين ص 47

العرف الخاص :

وهو ما كان مخصوصا ببلد دون آخر ، أو بأرباب مهنة دون أخرى ·

ولكل قوم أن يصطلحوا على ما شاؤوا من غير ما هو محرم · وذلك كتعارف أهل اللغة على كلمة (الرفع) · والنقاد على كلمة (النقد) · ومن ذلك ما تعارفه أهل العراق من جعل المهر المعجل أقل من المهر المؤجل ، وكتعارف أهل مصر من جعل المهر المعجل أقل من المهر المؤجل ، وكتعارف أهل مصر من جعل المقدم من المهر ضعف المؤخر (11) ·

ومثل هذا يثبت به الحكم الخاص ، ما لم يخالف القياس أو الاثر ، ولا يصلح لتخصيص العام (12) ·

ففى عرف التجار أن ما ينقص الثمن يعتبر عيبا ، وكذلك اضافة أجور النقل وبعض الخدمات الى رأس المال · قال الكاساني : ولا بأس بأن يلحق برأس المال أجرة الفتال والصباغ والغسال والخياط والسمار وسائق الغنم والكراء ونفقة الرقيق ، من طعام وكسوتهم ، وما لا يدلهم منه بالمعروف وعلف الدواب ، ويباع مرابحة وتولية على الكل اعتبارا بالعرف (13) ·

وفى عرف المحامين قبض بعض الاجرة قبل المرافعة · وغير ذلك من الاعراف الخاصة ·

وهذه الاعراف تلقى ضوءا ساطعا على ما كتب ومضت عليه السنين من صكوك ومعاملات ·

2 ـ ويقسم باعتبار نوعه الى قولى ، وعملى :

العرف القولي :

وهو ما تعارفه الناس فى بعض الفاظهم وذلك كان تكون بعض الالفاظ قد وضعت لمعنى عام ، ثم خصصت عرفا الى بعض مسمياتها مثل لفظة (دابة) فقد وضعت لكل ما يدب على الارض ، ثم خصصت عرفا بذات الاربع ، وأحيانا يصير الاسم شائعا فى غيرما وضع له أولا ، بل فيما هو مجاز فيه مثل لفظة « مفازة » للصحراء ، وقد سميت

(11) أصول الفقه ، المتولى ص 160
(12) رسائل ابن عابدين ص 47
(13) بدائع الصنائع ج 5 ، ص 332 ·

بذلك تيمنا بالفوز بقطعها بسلام · وكذلك لفظة (غائط) وضعت للمطمئن المنخفض من الارض والعذرة ، واصل وضعها للغائط الذى يستتر خلفه لقضاء حاجته ، فصار أصل الوضع منسيا والمجاز معروفا سابقا الى الفهم يعرف الاستعمال (14) ، فاصبحت هذه الالفاظ على ما نعرفه الآن ، والامثلة على ذلك كثيرة ، فكثير من الكلمات قد تغير مدلولها عما كان عليه سابقا ·

العرف العملى :

وهو ما تعارفه الناس فى معاملاتهم ، وذلك كالبيع بالتعاطي (15) · وكتعارف أعضاء الجمعيات الاستهلاكية على تقسيط الثمن ، وكتعارف تجار الحبوب على كون أجرة النقل على البائع ، وغير ذلك ·

ومثل هذا التعامل حجة يترك به القياس ، ويخص به الاثر ·

وقد أجرى العرف مجرى النطق عملا ، فلو أن انسانا لاحظ شاة لاخيه أشرفت على الهلاك ، وجب عليه ذبحها ، خلافا للقياس · ومما يؤيد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم اعطى لعروة دينارا يشترى له به شاة فاشترى شاتين بدينار ، فباع احديهما بدينار ، وجاء بالدينار والشاة الاخرى (16) وعروة باع وقبض بغير اذن لفظى اعتمادا منه على الاذن العرفى الذى هو أقوى من اللفظى فى أكثر المواضع ·

شروط العرف

لا يمكن أن نأخذ العرف بمعناه اللغوي ، فليس كل عرف معتبرا ، ولكي نعرف العرف الصالح لبناء الاحكام عليه ، لابد من ذكر الشروط الواجب توافرها فى الظاهرة الاجتماعية المعتبرة ، واهمها :

1 - ان يكون العرف مطردا وغالبا فى المكان الجارى فيه ، كتعارف الناس على تقديم هدية للمخطوبة قبل العقد على أن لا تعتبر من المهر · فاذا كانت هذه العادة شائعة بحيث لا ينكرها أحد من الناس كانت صالحة لبناء الاحكام ·

(14) المستصفى للغزالى ج 1 ، ص 146
(15) أنظر رسائل ابن عابدين ص 27
(16) اعلام الموقعين ص 294

وقد نصت المادة (4I) من مجلة الاحكام العدلية على ذلك بقولها « تعتبر العادة اذا اطردت أو غلبت » وتكون الغلبة بانتقال الاسم من طائفة الى أخرى حتى يستفيظ ويتعدى الى غيرها ، فيشيع فى الكل على طول الزمان (I7) ·

اما اذا لم تكن العادة غالبة فلا يمكن اعتبارها عرفا صالحا لبناء الحكم ·

ومن هذا يتضح أن العادات الخاصة والمشتركة والقهرية ، ليست من العرف ·

2 ـ أن يكون العرف المراد تحكيمه فى التصرفات موجودا ، وقائما عند انشائها ليصح حمله عليه ·

قال ابن نجيم : العرف الذى تحمل عليه الالفاظ انما هو المقارن السابق دون المتأخر لذا قالوا لا عبرة بالعرف الطارىء (I8) ·

فلو باع انسان عقارا قبل عشر سنوات بعملة (الليرة) مثلا ، ثم تبدلت هذه الليرة بغيرها ، ولم يشر الصك على نوع من أنواع الليرات ، فالمعتبر هو الليرة المتداولة ، وقت العقد ، ولا عبرة بالعرف الطارىء ·

2 ـ عدم معارضته للنص الشرعى من كل وجه ، والذى يلزم بالاخذ به ، أبطال النص ، لان ذلك يعتبر نسخا للاحكام الظاهرة المستقرة الثابتة ، وبما أن النسخ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم باطل فهو باطل ، وحكم الشرع باق على أصله ، وان تغير عرف الناس ·

فكل عرف يعارض النص فهو فاسد لا ننظر اليه مهما كانت درجة الاعتياد عليه ، وذلك كالربا وكشف العورة وغيرها · اما اذا كان العرف شائعا ولا نص يعارضه فهو معتبر اذا حقق مصلحة أو دفع مفسدة ، وكان مبناه العقل ·

اما اذا عارض النص من وجه ، فهو التخصيص ، فاذا كان النص عاما خصص بالعرف ·

3 ـ أن لا يعارضه نص بخلافه فى العقد ، حيث كل ما يثبت بالعرف اذا صرح المتعاقدان بخلافه بما يوافق مقصود العقد ويمكن الوفاء به صح · فلو اشترط العراقى جعل جميع المهر معجلا جاز له ذلك ولو خالف العرف ، فاذا ذكر الشرط فى العقد

(I7) الاشباه والنظائر لابن نجيم ح I ، ص I22 ، المعتمد فى أصول الفقه للبصرى ص 20I

(I8) الاشباه والنظائر ح I ، ص I22 ، راجع الفقه فى ثوبه الجديد ص 5I

لا يلتفت الى العرف السائد · قال فى شرح المجلة : ان العرف يكون حجة اذا لم يكن مخالفا لنص أو شرط لاحد المتعاقدين ·

فاذا توفرت فى العرف هذه الشروط كان صالحا لبناء الاحكام عليه ، اما اذا عارض البعض منها فلا عبرة بـه ·

أهميـــة العـــرف

لابد للمفتى والمجتهد أن يطلع على اعراف الناس وأحوالهم قبل اعطاء حكمه فى المسألة المعروضة عليه ، ولا يكون العالم عالما الا اذا علم بأمور البلد واعرافه ونظام حياته ، ولعل هذه المسألة تحتل مكانها فى عصرنا الحاضر ، فقد اهتمت الامم بأعرافها دراسة ومنشأ ، لانها تمت الى علم الاجتماع بأوثق الصلات ، وبقدر ما تكون الاجتماعيات عريقة ، يتمتع الشعب بالاصالة ·

ولقد سبق المسلمون غيرهم فى هذا المضمار ، وذلك لان الظاهرة الاجتماعية ذات علاقة بالتكوين النفسى ، فهي تنعكس على الافعال ، وهذا هو السر فى كون الاسلام ، أول ما بدأ بتقويم النفس وتهذيبها ليكون العمل صالحا ·

وقد اهتم الفقهاء قديما بالعرف ، حيث قالوا : لو أن الرجل حفظ جميع الكتب ، لابد أن يتتلمذ للفتوى حتى يهتدى اليها ، لان كثيرا من المسائل يجاب عنها على عادات الناس ، فيما لا نص فيه (19) ·

فاذا كان المفتى من بلد غير الذى يقيم فيه وجاءه رجل يستفتيه فى لفظة من ألفاظ الطلاق فلا يفتيه بما عرفه وألفه ، بل عليه أن يتأكد من المقصود المتبادر من هذه الكلمة أولا ، ثم يرتب الحكم بمقتضاها ·

فالعرف موضوع خصب لمعرفة الاحكام لا سيما فيما لا نص فيه ، ولابد للدارس أن يلم بأحكامه ليعرف مدى صحة الاعراف السائدة ·

وللعرف مجالات واسعة تختلف باختلاف طبيعتها تضييقا وتوسيعا ، وأهمها :

1 ـ اثبات حكم لما لا نص فيه :

اذا وجد العرف مستكملا شروطه ، ولا نص فى المسألة ، فهو صالح لبناء الحكم عليه ، ولقد أقر الشرع بعض اعراف العرب الصالحة ، من ذلك اقراره انواع

---

(19) أنظر رسائل ابن عابدين ج 1 ، ص 46

المتاجرات ، والمشاركات الصحيحة عندهم ، كالمضاربة والبيوع والاجارات الخالية من المفاسد ، من ذلك جواز بيع السلم لجريان عرف المدينة به ، والاستصناع ، ومبدأ جعل الدية على العاقلة ، بالرغم لمخالفتها للقياس ، حيث بيع المعدوم محرم ، ولا يعاقب انسان بفعل غيره ٠

فاذا كان العرف صحيحا محققا مصلحة غير جالب مفسدة ، فهو صالح لبناء الحكم عليه ، على اعتباره كشف عن الحكم الشرعى المعتبر ٠ وقد نصت المادة (27) من مجلة الاحكام العدلية على أن « استعمال الناس حجة يجب العمل بها » ٠

على أن العرف لا يثبت حكما بنفسه ، وانما هو المرشد الى الحكم ٠ وهذا الحكم قد تشترك فى مكوناته عدة أمور كالاستحسان والمصلحة المرسلة ، والعقل ، ولكنه يجب أن يعود الى دليل معتبر ٠

2 ـ تخصيص العام وتقييد المطلق : الالفاظ التى خاطبنا الشارع بها ، منها ما هو عام ، أو مطلق غير مقيد ٠ والعرف مصدر مهم لتشخيص المعنى المراد ، والمتبادر فهمه من اللفظ ، وقد ذكره الفقهاء فى معرض معرفة المدلول ٠ وقد اتفق جمهور الاصوليين على أنه يخصص العام ويقيد المطلق ، لان الشارع انما يخاطب الناس بما تعارفوه من الاطلاقات ٠ لذا قالوا : الالفاظ محمولة على مقتضاها (20) ٠ فكل لفظ ورد الينا من جهة الشارع فانا نحمله على عرفه ، أو على اللغة أو عرفها ٠ لذا قالوا : العادة والعرف العملى مخصص (21) ٠

والحقيقة أن تخصيص النص الشرعى ، أو تقييده بالعرف ، انما هو بيان واستعانة على معرفة مقصود الشارع ، وليس تعديلا طارئا عليه ٠ فقوله تعالى : « **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف** » (22) ٠ لم يبين مقدار النفقة ، وانما المرجع فى ذلك الى العرف ٠ ومن ذلك قوله تعالى : « **واشهدوا ذوي عدل منكم** » (23) وما يخل بالعدالة مرجعه الى العرف ، وذلك مثل كشف الرأس ، كان مخلا بالعدالة ، وقد ترد شهادة مكشوف الرأس ، فتحديد العدالة يعود للعرف ، فمثلا كل الناس فى زماننا قد تعارفوا كشف الرأس ، فلا يعتبر مخلا بعدالة الانسان ٠ ثم أن حقيقة اللفظ

(20) رسائل ابن عابدين ص 27
(21) التقرير والتحبير ح 2 ، ص 28
(22) البقرة آية 322
(23) سورة الطلاق 2

قد تتعذر ، أو يتعذر العمل بها ، والمعول عليه هنا هو العرف ، اذ نأخذ بالمجاز المستفاد من تعامل الناس · فلو حلف انسان أن لا يطير فى الفضاء ، انصرف يمينه على ركوب الطائرة ، لان حقيقة الطيران بدون آلة متعذرة ·

وفى باب الايمان مادة غزيرة يتجلى فيها استعمال الناس ، ومدى الالتزام به ·

كما أن للعرف أهمية فى كيفية فهم الخطاب ، اذا كان مبناه العرف ، فمثلا نفهم من قوله تعالى : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** » هو كل ما من شانه قوة البلد ثقافيا وعلميا وعسكريا وغير ذلك ، وهذه الامور تختلف من عصر الى عصر ، لذلك بين القرآن حاجة المسلمين فى ذلك الى جمع الخيول والاعتناء بها ، واعداد السيوف وما يرافقها ، فقال « ومن رباط الخيل » (24) ·

وقد يكون التأليف والاهتمام بالمسرح من لوازم القوة المطلوبة ، لان هذه الاشياء ، انما تفهم من أعراف الناس وأحوالهم ، ومدى ما وصلوا اليه ·

فالعرف عون على مراد المتكلم حيث لكل قوم ما تعارفوا عليه ، ويجب أن يحمل كلامهم على لغتهم وعرفهم ، فينصرف الى المعانى المقصودة بالعرف حين التكلم ، ولو خالفت المعانى اللغوية الحقيقية ·

فقد ينصرف معنى عبارة عن مدلولها ، الى معنى جديد · نحو كلمة مفازة أصبحت تدل على الصحراء عرفا · ومن ذلك ما يجرى فى بعض المعاملات من تسميات نحو « ضمان ، تضمين » أصبحت تدل على نوع من العقود والبيوع ، خلاف حقيقتها ، فيقال : ضمنتك البستان ، ويفهم منه بيع الثمر الذى فى شجر البستان بلا قرينة ، أو توضيح ، وقد لا يفهم ذلك شعب آخر ، وكقول الخاطب ـ فى اعراف بعض البدو ـ جئت اطلب فرسا تأكل بيدها · يفهم من هذه العبارة أن هذا الرجل قد قصد الخطوبة ·

وفائدة ذلك تظهر فى معرفة معنى ومدلول الصكوك القديمة على اختلاف أنواعها ، والاقرارات كذلك · فمثلا لو اطلعنا على مستمسك يقول صاحبه فيه (عينت فلانا ناظرا على الوقف » يجب علينا أن نرجع الى العرف فى زمن كتابة المستمسك لنفهم ما المقصود من كلمة (ناظر) · ويحمل على ما كان مستعملا ·

---

(24) الانفال 60

حجيـــة العــرف

الفقهاء امام العرف اصناف ، فمنهم من الغى اعتباره ، ومنهم من اعتبروه ، والذين اعتبروه يختلفون تضييقا وتوسيعا ٠

والقائلون بحجية العرف يستدلون بالآية الكريمة « **خذ العفو وأمر بالعرف** » (25) فظاهر الآية يدل على اعتبار الشارع للعرف ، فاذا تعارف الناس أمرا حسنا فهـــو حجة ملزمة ٠ وكلمة (العرف) يفهم منها هنا ، ما وجب اتباعه من قبل الشارع على اعتباره أمـــرا حسنا اشتهـــر وتعـــارفه النـــاس ، وليس كـــل مـــا تعـــارفه النـــاس حسنا ، حيث الغت الشريعة كثيرا من الاعراف الفاسدة ٠

واحتجوا كذلك بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » (26) ٠ فالحديث يدل على حجية ما تعارفه المسلمون وساروا عليه بـــدون نكـــير (27) ٠

وقد ضعف الاستدلال بهذا الحديث من ناحيتين :

الاولى : انه موقوف على ابن مسعود حيث قال : ان اللـــه نظر فى قلوب العبـــاد فاختار محمدا صلى الله عليه وسلم ، فبعثه برسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد فاختار له أصحابا ، فجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيه مما رآه المسلمون حسنـــا فهو عند اللـــه حسن وما رآه المسلمون قبيحا فهو عند الله قبيح ٠

والثانية : على فرض صحة الحديث فانه يدل على حجية الاجماع لا العرف ، لان المقصود بتمييز الحسن والقبح ما صدر عن ذوى الكفاءة والنظر ، وهم مجتهدو الامة ، ولا عبرة بنظر غيرهم ٠ وهذا ما يؤيده الواقع العملى ، فمثلا تعارف الناس على ايواء المجرم والدفاع عنه ، اذا كان من الاقارب ٠ وتعارف عامتنا مدينات وأخلاقا تتنافى مع أصول العقيدة دون أن يشعروا بهذا التناقض ٠

اما المانعون للعرف ، فدليلهم هو عدم اعتبار الشارع له ، فمسالته ظنية ، لا يصح أبتناء الاحكام عليها ، فهم يرون أن امضاء الشارع لبعض الاحكام العرفية ، انما هو امضاء قام على أحكام عرفية خاصة لا على أصل العرف (28) ٠

(25) الاعـــراف 199
(26) أنظر المقاصد الحسنة للسخاوى ص 267
(27) راجع الفروق للقرافى ح 1 ص 146 ، بدائع الصنائع ح 5 ص 332 ، المبسوط ح 12 ص 128
(28) الاصـــول العـــامة ص 432

وقالوا : كما أقر الشارع بعض الاعراف هـدم بعضها ، وما أقره الشارع ثبـت بالنص ، ليس بالعرف ، وعليه لا يصلح العرف لبناء الاحكام عليه ٠

والحق أن العرف ليس أصلا مستقلا قائما بذاته الا أنه يرجع الى بعض أدلة الشرع المعتبرة ، كالاستصحاب وحكم العقل ، وسـد الذرائع ، والمصلحة المرسلة ، فالعرف عبارة عن كاشف للحكم الشرعى ، وليس مثبتـا لـه ٠

قـال ابن عابـدين :

والعـرف فى الشـرع لـــه اعتبـار لذا عليـه الحـكم قـد يدار (29)

واعتباره انما يعود لرجوعه الى أدلة الشرع المعتبرة ، من جلب مصلحة ، أو دفـع مفسـدة ٠

وقد سار الناس قديما على مقتضى اعرافهم ، حتى أصبحت مـن نظـم حياتهم الاجتماعية ، ولا داعى لحملهم الى غيره ، اذا كانت منسجمة مع طبائعهم ، مستكملة لشروط العرف ، ذلك دفعا للمشقة والحرج ، فمثلا بيع السيارات من قبل الوكلاء من غير رؤية من قبل المشترى ، وتقسيم المهر الى معجل ومؤجل ، وغير ذلك ٠
وقد سار المانعون له بمقتضى العرف ، شعروا ، أو لـم يشعروا ، فمثـلا اذا ركـب الانسان سيارة مصلحة النقل ، فانه يعطى النقد المطلوب ويستلم البطاقة من المحصل ، دون اجراء صيغـة العقـد ٠

وكذلك لو ادعت المرأة مهرها المؤجل قبل الدخول ، فان جوابهم ، هو أن المهـر المؤجل انما هو ضمان ، والضمان لا يكون الا بعد الدخول ، وغير ذلك من المسائل ٠

وبالتأمل يتضح لنا أن الجميع قد أخذوا بالعرف وبنوا احكامهم عليـه كظاهرة اجتماعية تستحق الرعاية ٠ ولكن البعض علل ، حيث يقول : أن الحكم ثبت بالعقـل ، والآخر يقول : ثبت بالمصلحة ، والآخـر باستصحاب الحـال ، فالخلاف هنـا شكلى لا يترتب عليه اي اثـر عمـلى ٠

والعرف يستند الى دليل شرعى معتبر ولو ظاهرا ، بما يفيده قوله تعالى : « **خـذ العفو وأمر بالعرف** » فان فيه دلالة ظاهرة على الاخذ بالعرف ، ومن ثم بناء الاحكام عليه ، ولكن تبقى هنا مسالة دلالة الامر فى الآيـة ، على الوجوب هـو أم يـدل على

(29) رسائل ابن عابدين ص 44

الاباحة كما فى قوله تعالى : « **كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود** » (30) .

والآية تفيد كلا المعنيين فى الظاهر ، ونحن على الخيرة فى ذلك بأيهما أخذنا حكمنا فى العرف ، بمقتضى تلك الدلالة . فان قلنا أن الامر يفيد الوجوب ، أخذنا بالعرف على الوجوب ، وقضينا به بشرط عدم وجود نص أصلا . أو عدم تعارضه مع نص صريح بكل وجوهه . وان قلنا أن الامر يفيد الاباحة، أخذنا به على سبيل الاختيار .

والظاهر فيما يبدو لنا من دلالة الآية على الكون الامر للوجوب ظاهرا ، ومن قيام آثار وشواهد كثيرة على الاخذ بالعرف ، أن نأخذ به كدليل واجب يلزم الحكم به وجوبا . وما دام هكذا يمكن القول بأن العرف معتبر فى الشرع وصالح لبناء الاحكام عليه اذا توفرت شروطه .

طبيعة الخلاف

اذا عدنا قليلا الى معنى العرف ، نرى أنه منبعث عن الفكر والاختيار ، يتبين بوضوح اشتباك دليل العقل مع المصلحة كعناصر مكونة للعرف المعتبر ، لذا قد يستغنى عنه من اعتبر دليل العقل ، أو المصلحة ، أو الاستصحاب فى التوصل الى الحكم الشرعى ، هذا لم تتاثر الاحكام العملية المترتبة عليه ، ونستطيع أن نحصر الخلاف فى الشكل والتسمية فقط .

تغير الاحكام بتغير العرف .

ان الاحكام التى تتغير بتغير الازمان هي الاحكام المستندة على العرف والعادة ، لانه بتغير الازمان تتغير احتياجات الناس ، وبناء على هذا التغيير يتبدل العرف ، وبتغيره تتغير الاحكام ، بخلاف الاحكام المستندة على الادلة الشرعية الثابتة ، كالقرآن والسنة ، فانها لا تتغير ، فمثلا جزاء القاتل العمد هو القتل ، فهذا لا يتغير (31) . وقد نصت المادة (29) من مجلة الاحكام العدلية بقولها «لا ينكر تغير الاحكام بتغير الازمان» .

وقال القرافى « ان الاحكام المترتبة على العوائد تدور معها كيفما دارت ، وتبطل معها اذا بطلت كالنقود فى المعاملات ، فلو تغيرت السكة الى سكة أخرى ، فالمعتبر فيها السكة التى تجددت العادة بها » (32) .

(30) البقرة 187
(31) أنظر شرح المجلة ج 1 ص 42
(32) الفروق للقرافى ج 1 ص 55

ولقد خالف أبو يوسف ومحمد أبا حنيفة فى بعض المسائل نظرا لتغير حياة الناس واختلاف أعـرافهم ٠

ولقد غير الشافعى كثيرا من أقواله التى قالها فى العراق حين نزل مصر تمشيـا مع أعرافهم وعاداتهم هناك ٠ فقد نجد الاختلاف فى الحادثة من قطر الى قطر نظـرا لاجوائها وحياتها ، فمثلا فى تحديد كمية الماء الصالح للوضوء لا يمكن أن يكون واحدا فى الصحراء والمدينة ، ولقد اشترط الامام أبو حنيفة عدالة الشهود ، واكتفى بالعدالة الظاهرة ، وعندما فشـا الكذب وحصـل الزور ، اشتـرط أبو يوسف ومحمد تزكية الشهود ، وعندما حصل التزوير فى الصكوك اقتضى تسجيل العقد فى دائرة كاتب العدل ، وهكذا تحصل التغيرات فى الاحكام ، ومنشؤها زمان الناس واعرافهم ٠

ولو نظرنا الى طبيعة التشريع الاسلامى لوجدنا أن اختلاف الاحكام ليس معنـاه اختلافا فى أصل الحكم بنسخه مثلا ، لانا نعلم أن الشرع وضع على أنه دائم ، ولكننا نجد الحكم قد انصب على سبب ، وكيفما وجد ، وجد حكمه الشرعى فمثلا نهى الشارع عن الشذوذ عن المألوف ، فوجدناه يتحقق بكشف الرأس فى زمن ، اما فى زماننا فهو المألوف ٠ فالاحكام الشرعية ثابتة تتبع أسبابها حيث كانت باطلاق (33) ٠

تـرك القيـاس بالعـرف :

تنص الاجتهادات الاسلامية على ان القياس يتـرك بالعرف ، وذلك لان العـرف دليل الحاجة ، فهو وليد المصلحة ، لذا كان أقـوى مـن القياس ، فيترجح عليه عند التعارض « العرف بمنزلة الاجماع شرعا عند عدم النص » (34) ٠

فمثلا منع الامام أبو حنيفة الانتفاع بدودة القز قياسا على الحشرات ٠ وقـد جعلها أبو يوسف حلالا نظرا للعرف ، ومـن ذلك عـدم سماع دعـوى الزوجة بمهرها المؤجل قبل الفرقة للعرف ، خلافا للقياس ٠

اما تعارض العرف والاستصلاح ، فالعرف مقدم لان مصلحته اعم ٠

والحجية هنا للعرف العام ، فهو الذى يترجح على القياس والاستصلاح ويخص بـه الاثـر (35) ٠

(33) الموافقات للشاطبى ج 2 ص 285
(34) فتـح القدير ح 6 ص 157
(35) أسباب اختلاف الفقهاء ص 256

العــرف بين الفقــه والقانون :

يحتل العرف مصدرا مهما بين مصادر القانون الرسمية ، وقد اعتبر مصدرا قائما بذاته لثبوت الاحكام ، فالمصادر الرسمية للقانون هي : التشريع ، والعرف ، والقانون الطبيعى ، وقواعد العدالة ، وأحيانا الدين ·

فأعراف الناس منظورة بنظر الاعتبار ، بغض النظر عن مشروعيتها ·

اما بالنسبة للشريعة الاسلامية ، فالعرف لا يستقل بنفسه لثبوت الحــكم ، وانما يفتقر الى من يقومه من الادلة الاخرى · فصلاحيته للاثبات ، لا للثبوت ، الا اذا رجع الى دليل معتبر · فهو مقيد ·

ولعل ذلك يرجع الى طبيعة كل من الدراستين ، فالقانون من صنع المجتمع ، فهــو متأخر عن تطوره وطبيعة تفكيره ، لان الانسان قد يعتاد الامر فاذا فشا وتعارفه الناس فأصبح ظاهرة اجتماعية التقت المشرع الى هذه الظاهرة ، وذلك لان القانون لا يمكنه التغير بسرعة تغير تفكير المجتمع وتطوره · وعليه فالجماعة هي التى تضع القانون وتكونه بعاداتها واعرافها وتقاليدها وتاريخها (36) ، لان هذه الامور ذات أثر فعــال فى نفس المشرع لا يمكنه تجاهلها بأي حال من الاحوال ، بل تدخل فى كيفية صياغــة القــانون ·

وما دام القانون متأخرا عن المجتمع فلا غرابة اذا حصل التناقض بين ما وصل اليه الانسان ، وما هو مدون · بل يجب أن يحصل هذا التفاعل ، لان تفكــير الانسان فى مجتمعه ، هو المنبع الذى يغذى القانون على طول الزمن ·

فلا يمكــن أن يوصف القانون بالثبات والاستقرار ، كما لا يمكــن وصفه بصفــة التجرد ، لان سنه جاء تلبية لميل الانسان فى تنظيم حياته ، فلا مانع مــن دخول هذه الميول من قبل جماعة من الناس فى مواده دون أن يشعر المشرع بضررها على الآخرين أو حرمانهم مما هم أهل له ·

كذلك لا يمكن وصفه بالتقدمية ، لانــه متأخر عــن الفكر الانسانى ، وحــين تســن الظاهرة الاجتماعية وتصاغ على شكل مادة قانونية ، يكون التفكير الانسانى قد اتخذ شكلا آخــر فى التصور ·

---

(36) راجع التشريع الجنائى عودة ح 1 ص 31

كما لا يمكن وصفه بالشمول ، لانه اختص بحل المنازعات والفصل فى الخصومات وقد يهمل كثيرا من الجوانب الانسانية ، من زاوية البدء بما هو أهم ٠ وعلى فرض بذل الجهد لسد جميع الثغرات تبقى مسألة مهمة وهي أنه نتاج الانسان وهو قاصر على ادراك جميع ما يحيط به ، أو يحتاج اليه ٠

اما الشريعة الاسلامية ، فهي من صنع الاله الحكيم المنزه عن الميل والهوى ، العالم بكل شيء ، خالق الانسان ، وهو أعرف بما يصلح شانه فى مختلف العصور ٠

فالشريعة ليست نتيجة لتطور المجتمع ، بل هي أوسع دائما منه وكلما تسلق الانسان سلم الرقي والحضارة ، وجدها أمامه ، فهي لهذا ليست متخلفة ، بل سابقة ، وذلك لما أودع الله فيها من المرونة والشمول والذاتية ٠

ويصح القول : أن الجماعة واعرافها وتقاليدها ، من صنع الشريعة ، ولا عكس ٠

لذا يمكن أن توصف الشريعة بصفة الذاتية والشمول والتقدم والثبوت والاستقرار حيث أن اطار النظرية ثابت وفروعها مرنة متغيرة تتسع لتطور الانسان ٠

كما توصف أيضا بصفة التجرد والتنزه عن الهوى والميل ، لانها لم توضع من قبل فئة معينة من الناس ٠

بين الشراح والفقهاء :

على ضوء ما تقدم نفهم كيفية تناول الموضوع من قبل رجال القانون وهم يتكلمون عن مصدر من أهم المصادر ٠ وبين الفقهاء وهم يحاولون أن يتوصلوا لحكم شرعى ٠ وربما تأثر البعض بالدراسات القانونية الغربية ، فراح محاولا مجاراة تلك الدراسات حرصا منه على ابراز الشريعة بمظهرها اللائق ، فحصل خلط واضطراب فى محاولة التوفيق بين الفكر الغربى والاسلامى ٠ ولكن يجب أن لا يغيب عن البال أن لكل طبيعته . واننا يجب أن نسير بخطا ثابتة ، وأن نظهر الشريعة على حقيقتها ، وافقت الفكر الغربى أم خالفته ٠ فليس كل غربى صحيحا ، والمدنية الحديثة فيها الغث والسمين ، ولئن هزمنا ماديا فلا ينبغى ان نهزم روحيا ٠

اما بالنسبة للفقهاء فقد اختلفوا كما عرفنا فى عد العرف مصدرا صالحا لبناء الحكم عليه ، والذين اعتبروه يختلفون أيضا تضييقا وتوسيعا ، فمنهم من جعله بمنزلة الاجماع شرعا عند عدم النص ، ومنهم من ترك به الحقيقة المستعملة كابى يوسف ومنهم من جعل السلطان للعرف السابق فقط ومنهم من حكم العرف الحادث ٠

قال مصطفى الزرقاء : وهذه الاجتهادات تكاد تكون متفقة على أن الحكم بالقياس يترك بالعرف ، ولو كان عرفا حادثا (37) ، ومنهم من جعله مخصصا للعام ، ومقيدا للمطلـق فقـط ٠

وخلاصة القول ، أنهم يتفقون على اعتبار العـرف لتشخيص الاحكام الجـزئية معنوية كانت أم لغوية أو فقهية ٠

كما يتفق الجميع على عدم جعله مصدرا قائما بذاته ، أما الخلاف فقد وقـع فى مسألة التماس المستند والاعتبار الشرعى له ٠

وبناء على ذلك أصبح العرف من أسباب اختلاف الفقهاء فى الاحكام ، فقد ذكـر غير واحد من الفقهاء الخلافات الناجمة عن الاعراف ، واختلاف الزمان ، وذكـروا الامثلة الكثيرة مما عدوه خلافا قد يوهم انه فى جوهر الحكم ٠ فقد يفتى عالم بقضية فى بلد ويفتى بخلافها فى بلد آخر كما فعل الشافعى فى مصر ٠

ولقد منع الامام أبو حنيفة استئجار معـلم القـرآن ، واباحه الصاحبان (محمد وأبو يوسف) الى غير ذلك من المسائل الكثيرة ولو نظرنا الى ظروف كل مسألة ومالها من صلة بالحكم مع روح التشريع الاسلامى ، لما وجدناه خلافا فى حقيقة الحكم ٠

خـــاتمـــة :

تقدم أن العرف دليل له حجيته نظرا لرجوعه الى أدلـة الشرع الاخرى ، وعليه لا ينبغى التنكر له لان اخراج العرف من مجال أدلة الاستنباط تضييق لتلـك الدائرة بلا موجب ، ولا حرج بالاخذ به ٠

والعرف دليـل كاشف عن الحـكم الشرعى وليس بمنشىء له ويكون باستكمال شروطه واستناده الى دليل شرعى معتبر ٠

(37) الفقه فى ثوبه الجديد ص 610

رائـد الدعوة الى التضامـن الاســلامى
عمر بن قدور الجزائــرى

د٠ محمد نـاصـر
معهد اللغة والادب العربى
جامعــة الجزائر

تمهيـــد :

ان الاحساس النابض الذى كـان يمـلأ جوانـح المسلمين الجزائريين ، فيطبـع تفكيرهم ، وحيـاتهم بطابعه الخاص ، هو شعورهم الفياض بانهم ينتمون الى العالم الاسلامى الكبير أولا وقبل كل شىء ٠

وان المتتبع للثورات الجزائرية بداية من ثورة الامير عبد القادر بعد الاحتلال الفرنسى مباشرة ونهاية بالثورة التحريرية فى نوفمبر 1954 لا يجدها فى بعض معانيها الا امتدادا للجهاد الاسلامى ضد الغزاة الصليبيين ٠

ذلك لان الجزائريين كانوا لا يرون فى الحدود التى خطها الاستعمار الفرنسى ، ليغلهم بداخلها ، الا حدودا فاصلة بين المسيحية والاسلام ، ومن هنا كانت الفكرة التى

تعايش الوطنيين ، وهم يدافعون عن أرضهم عقيدة راسخة بانهم يدافعون أيضا عن حمى الاسلام ، وان انتصارهم على عدوهم الدخيل انتصار للامة الاسلامية جمعاء ، ولولا ذلك الاحساس الشريف لما تتابع الشهداء الى ميدان الشرف أفواجا ... وان المجاهد منهم لتخرج كلمة « الله اكبر » من فمه مدوية لتعانق الرصاصة المنطلقة من فوهة البندقية .

ولقد ادرك بعض المؤرخين الفرنسيين أنفسهم ، بان المسلمين الجزائريين كانوا يحاربون فرنسا ، دائما ، بوحي من هذا الشعور الدينى ، وان عداوتهم المستحكمة للاستعمار الفرنسى يقف وراءها انتماؤهم الى الوطن الاسلامى العريض (1) .

ونحن عندما ندرس أفكار الذين كتبوا فى الصحافة من المسلمين الجزائريين نجد عندهم هذا الشعور المتوقد وهذا الاعتقاد الراسخ بالانتماء الى الوطن الاسلامى ، ونراهم ينظرون الى كل الاحداث التى كان يمر بها هذا الوطن فى محنه القاسية من هذه الزاوية ، وذلك الاعتقاد ، وهذه النظرة يدلان دلالة قاطعة على ان ارتباطهم باخوانهم المسلمين ، وتعلقهم بالتضامن معهم لم يستبدل عندهم قط بأي شعور قومى آخر ، وسيستمر هذا الميل قويا عندهم حتى سنة 1930 على الاقل .

وعلى الرغم من الحصار الحديدى الذى ضربه الاستعمار الفرنسى حول الجزائريين بغية عزلهم عن بقية العالم الاسلامى فانه لم يفلح قط فى هذه المحاولة ، بل لم يزد بذلك الضغط احساساتهم بالانتماء الى العالم الاسلامى الا تعلقا وشوقا ، واذا بالافئدة التى حاول الصليبيون تحويلها الى العالم الغربى ، تولى وجهها شطر المشرق العربى ، وتتفتح لكل نفحة أمل تهب عليها من اخوانها المسلمين : من الجريدة أو المجلة ، حتى الخليفة أو الزعيم . فوجد ذلك الكبت الذى مارسته السلطات الاستعمارية منذ السنوات الاولى للاحتلال ضد الاهالى ، وجد له متنفسا فى الشعر الشعبى ، والهجرة الى المشرق ، والمشاركة فى الجمعيات السرية الاسلامية (2) ، كما فعل الامير عبد القادر اذ كان عضوا فى جمعية العروة الوثقى التى انشأها جمال الدين الافغانى بالهند عام (1882 م) (3) .

---

(1) انظر أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية ص 182

(2) انظر الحركة الوطنية ص 397

(3) أنور الجندى الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا ص 39

ثم ذلك التعاطف الشديد الذى كـان يحس به المصلحون الجزائريون مـع مجلـة « المنار » العبدوية حتى اعتبرها محمد بن مصطفى بن خوجة وعبد الحليم بن سماية بانها « مدد الحياة » للمسلمين الجزائريين (4) .

ولعل الاحداث السياسية التى يمكن أن نعتبرها سببا رئيسيا فى بعث هذه المشاعر من المناجاة الهامسة الى الحديث الجاهر ومن الخاطرة الفكرية الى المقال الصحفى ، هي تلك الحروب التى اجتاحت أجزاء من العالم الاسلامى عندما كانت أرض البلقـان مسرحا للصراع العنيف بين الدولة العلية ، والدول المسيحية وكانت البـلاد الليبيـة أتونا مستعرا بين المجاهدين الليبيين والغزاة الايطاليين ، ثم دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء فى اكتوبر مـن سنة (1914) .. ، فـان هذه الحوادث الكبرى قد اشعلت فى القلوب المرتبطة بدولة الخلافة الاسلامية حماسا متقدا لـم تنجـح فرنسا فى تحويله لصالحها رغم ما استعملت من وسائل الترهيب ، وأساليب الدعاية مستعينة فى ذلك ببعض الشباب المتفرنس ، ورجال الدين الرسميين ، وشيوخ الزوايا المنحرفة .

ثم توالت أحداث أخرى هزت العالم العربى هزا عنيفا ، وكانت لا ترى من وجهـة نظر أغلبية الجزائريين الا بعين مسلمة ، وذلك مثل وقوع أجزاء من المشرق العـربى تحت قبْضة الاستعمار الانجليزى ، أو الفرنسى ، ابان الحرب الكبرى وصدور وعـد « بلفـور » المشؤوم فى شـأن فلسطين الذى كان فى تقديرهم اتفـاقا بـين اليهودية والمسيحية ضد الاسـلام .

وتتمخض الحرب العالمية الاولى عن أحداث جسام وتتغير معها خريطة العـالم العربى الاسلامى تغـيرا كبيرا وتترك فى نفـوس المسلمين مشرقا ومغربا ، طعنـات نجلاء (5) ، ولكن هذا الجرح ازداد عمقا ونزفت منه الدماء نزيفا مروعا يوم تقوض عرش الخلافة تحت معاول الكماليين (1924 م) ، ويعصر نفوسهم هذا الفراغ المهـول الذى حفره « اتاتورك » وانصاره فى مسيرة الامة الاسلامية فى وقت كانت فيه أحوج ما تكون الى راية تجمعها ، وتوحد خطاها ، غير ان مخاوف التشتت والضياع مـا لبثت ان انقلبت عند الجزائريين بصفة خاصة الى دعوة ملحـة الى التوادد والاخاء حول « القرآن الكريم » وايمان أشد بوجوب التـلاحم حـول مقدسات الاسلام (6) .

(4) أنظر رشيد رضا تاريخ الاستاذ الامام ج 1 ، ص 178

(5) أنظر عبد الحميد بن باديس ، الشهاب ، ج 2 ، م 8 ، ص 18 (فيفرى 1938)
(6) أنظر ، عبد الحميد بن باديس ، الفاجعة الكبرى ، النجاح ع 152 (1924/3/20)

وتطبع هذه الاحداث جميعها أفكار كتاب المقالة الصحفية الجزائرية بطابعها الخاص . وتترك فى أساليبهم الكتابية صفات فنية ملحوظة ، ولكن الكاتب الذى اخلص لفكرة التضامن الاسلامى الاخلاص كله ، وسخر لها صحافته وقلمه منذ وقت مبكر جدا هو عمر بن قدور الجزائرى ..

عمر بن قدور الجزائرى والدعوة الى التضامن الاسلامى :

ان الحديث عن « القومية الاسلامية » أو الدعوة الى التضامن الاسلامى ..

« أو الجامعة » الاسلامية ، لم يظهر على صفحات الجرائد العربية الجزائرية ، الا مع ظهور الصحافة الوطنية ، وكان ذلك على يد كاتب بارز هو « عمر بن قدور الجزائرى » صاحب « الفاروق » ولم يكن منتظرا بطبيعة الحال أن تعنى صحافة استعمارية ، أو ورقات كان يشرف عليها فرنسيون أو مستشرقون بهذا الموضوع الحيوى الذى يخالف مبادئها . كما ان الكتابة حول هذا الموضوع من طرف الجزائريين قد يكون من قبيل المجازفة ، فان الدعوة الى مثل هذه الروابط الروحية فى مفهوم الاستعمار الفرنسى تحريض على التمرد والانفصال وتطاول على نفوذ فرنسا وهيمنتها على الشعب الجزائرى، وان المآل الذى انتهى اليه عمر بن قدور منفيا فى دار الغربة دليل ناطق على تخوفات المستعمرين من هذه الافكار (10) ، ولم يكن موقف السلطات الفرنسية بدعا فى هذا التصلب ، فان بعض المفكرين الاوروبيين نظروا الى الجامعة الاسلامية على أنها نذير بحرب صليبية ، وغلا بعض هؤلاء فى عقيدتهم الدينية أو السياسية ، ولم يجدوا حلا لهذه القضية الا القضاء على المسلمين فى جميع أنحاء العالم وابادتهم من هذه الحياة ونبش قبر الرسول (ص) بالمدينة ونقل رفاته الى متحف « اللوفر » بفرنسا (11) .

والحق ان هذا الكاتب كان الجزائرى الاول الذى تخطى الصفوف فى جرأة صادقة ، وصدع بمعتقده دون خوف أو وجل ، واخلص للدعوة الى القومية الاسلامية الاخلاص كله ، وتحمل عباها وحده وكرس لها مهجة نفسه طوال عمر

---

(10) نشر فصلا فى جريدة الفاروق يدعو فيه الى مناصرة تركيا ابان الحرب الاولى فنفته السلطات الفرنسية الى الاغواط

(11) أنظر : رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام ج 1 ، ص 108

« الفاروق » (1913 – 1915 م) وقبل ذلك بمقالاته التى كان يبعث بها الى جريدة الحضارة فى الآستانة ، واللواء ، والمؤيد بالقاهرة (12) ٠

ولم تكن المقالات الكثيرة الحارة التى اتحف بها الصحف العربية مشرقا ومغربا ابتداء من الآستانة ، ومرورا بالقاهرة ، وانتهاء بالمغرب الاقصى (13) أو تلك التى شغلت الحيز الاكبر من جريدته المشار اليها سابقا ، هي كل ما قدمه للاسلام والمسلمين بل تخطى باب النظريات الى الميدان العملى يدفعه ايمان قوى بوجوب التضامن والتعارف بين المسلمين ، فقدم للامة الاسلامية « مشروعا عظيما » ليكون نواة للتعارف بين أبنائها عندما راح يسائلهم : « ٠٠٠ هل فى الامكان تاليف جماعة من مفكرى مسلمى الجزائر ، وتونس ، والمغرب الاقصى ، تدعى ، « جماعة التعارف الاسلامى » ؟

« ٠٠٠ لقد شعرنا باحساس شريف يسرى بين المفكرين فى هذه الامة الاسلامية فى غضون ما نفثته صدورهم ولذلك رأينا ان نهذب هذا الاحساس ونزيده طموحا ٠٠٠ ينصب هذا المشروع العظيم امام اعين اخواننا المفكرين ليجعلوه قبلة آمالهم ٠٠٠ فليبذلوا كل نفيس لاعلاء وتنمية التعارف بينهم ٠٠٠ واننا لننتظر جواب كل فرد منهم على السؤال المرسوم اعلاه ليتسنى لنا ان نسجله فى دفتر التعارف ٠٠٠ وحصر كافة الانصار فى مشاهدة الائتلاف والاتحاد حيث يسهل العمل على الاثر والله ولي التوفيق سبحانه » (14) ٠

ان الفكرة العامة التى تبقى حية فى اذهاننا بعد دراستنا لمقالات عمر بن قدور ، هو ذلك الايمان الراسخ بوجوب العمل للتضامن الاسلامى والدعوة التى لا تعرف الكلل « للقومية الاسلامية » كعلاج فعال لكل ما أصاب المسلمين من ادواء الضعف ، والتفرقة ، والهزيمة ٠ والكفر بكل العصبيات الجنسية ، والتمرد على الاقليميات الضيقة جميعها ٠

اما الفكرة فانه لم يعرضها عرضا منسقا يتسم بالترتيب المنطقى ، لانه كان ينتقل من فكرة الى أخرى يدفعه الى ذلك استطراد معروف لدى بعض الكتاب القدامى ، ولكنه عوضنا عن هذا الترتيب بدراسة شاملة للموضوع فلم يترك جزئية من الجزئيات فى

(12) أنظر مجلة الثقافة التى تصدرها وزارة الاعلام الجزائرية ع 1 و 4 (1971)
(13) أنظر صالح خرفى ، شعراء من الجزائر ، القاهرة معهد الدراسات العربية (1969) ص 37 – 55
(14) الفاروق ، ع 66 (1914/6/22)

القضية الا واعطاها حقها من البحث والاستقصاء : فقد شخص حال المسلمين المتدهورة ، وبين أسباب هذا التدهور ، ثم اقترح لها الحلول المناسبة · فكيف رأي ابن قدور حال المسلمين آنئذ حتى استوجبت منه هذا الاعتناء الشديد ؟ « ··· ان كل مسلم فى هذا الوقت ليس بمسلم حقيقة ، بل هو تركى ، أو عربى أو بربرى بحسب العناصر ، أو مغربى أو جزائرى او تونسى أو سورى أو مصرى ··· بحسب الاوطان وذلك التنافر أحدثه انحلال الرابطة الاسلامية التى كانت تربط كل مسلم بأخيه ، وان كان أحدهما باقصى الشرق والآخر بأقصى الغرب ··· وتلكم أمة الاسلام التى ما زالت تسمى بالامة الحنيفية وواسطة عقد الامم ، أصبحت تابعة بمركزها الحالى ، وراضية بان تنسحب عنه الى المراكز الاخرى التى تبصرها من تحتها فى الدرك الاسفل، وما ذلك الا لان الغرور أوحى اليها كما أوحى الى الامة الاسرائيلية من قبلها بانها أفضل الامم ، وانشؤها فوقف بها العجب عند هذا الموقف ، وانتشت من خمرة القناعة فبقيت متقاعسة متخاذلة ، لا يروق لها ما يروق للعاملين ، وها هي ذى قد اشرف سلطانها على الزوال الى الابد كما باد سلطان الاسرائيليين من قبل · أفبهذا الحديث هم يكذبون ؟ (15) ·· تلك هي حال المسلمين كما شخصها من خلال ما أصاب دولة الخلافة (تركيا) تفرق فى أمرهم ، وتضارب فى أهوائهم ، واختلاف فى مذاهبهم · وفوق كل هذا وذاك غرور تحكم فى نفوسهم فانصرفوا عن الاعتراف بواقعهم المرير · وقد جمع الكاتب حال المسلمين فى كلمات جعلها عنوانا لاحدى مقالاته : ·· قصور ، ثم فتور ، فريح الدبور ، وسكنى القبور ، فهل من نشور (16) ؟

والكاتب لا يكتفى باستعراض حال المريض ، ثم ينفض يديه منه يائسا تاركا اياه نهبا للجراثيم الفتاكة والآلام النفسية ، بل انه ليحاول جاهدا ان يشخص أسباب المرض ويصفها بكل دقة فيكون بذلك الزعيم الاصلاحى الذى لا يطوح به اليأس مهما تكن الازمة مستحكمة « ··· ان هذا الداء هو عبارة عن نسيان الناس لاهمية نفوسهم من شدة ما أحاط بهم من هول الجهل ، وتملك الاجنبى ·· » (17) ·

والجهل ، وتسلط الاجنبى · فى نظر ابن قدور هما سبب ما أصاب الامة الاسلامية من ويلات · فقد نشأ عنهما فريقان مزقا الامة بينهما تمزيقا ، طائفة جامدة متحجرة

(15) عمر بن قدور ، دان النهوض ولم يدن .. الفاروق ، ع 15 (1913/6/6)
(16) أنظر م ، س : ع 14 و 15 و 16
(17) عمر بن قدور : معضلات اليوم والغد م ، ع 5 (1913/3/28)

وطائفة أخرى منحلة مستهترة ، فقد ترعرع عن الجهل طائفة العلماء الجامدين الذين يتعصبون لمستحدثات القرون الوسطى ، يعتبرونها هي الاسلام ولا اسلام سواها فقيدوا الفكر الاسلامى عن الانطلاق ، وغلوا المسلمين فى سلاسل الخرافات والبدع ، والقوا بهم على اعتاب الاولياء جثثا لاحراك بها يقعدهم عن العمل عقيدة التوكل والتسليم بالقضاء والقدر ... كما نشأ عن تسلط الاجنبى طائفة من الشباب المتفرنج المؤمن بالحضارة الاوروبية اغشى الاستعمار ابصارهم ببريق المدنية الزائف فأضلهم عن طريق الدين وفصلهم عن « القومية الاسلامية » « ... وتلك سطوة المدنية المتغلبة تفعل فى الظواهر والبواطن فعلها فتصير المغلوب دائما يتبع الغالب فى عوائده واخلاقه (18)».

وهو يصف الدواء الذى يعتقد انه ناجع لا محالة ، فلا يكتفى بتبيانه فقط ولكنه يلح على تحبيب الدواء الى المسلمين الحاحا بما يضرب لهم من امثلة واقعية وشواهد تاريخية محسوسة .

« ... ان المسلمين لا يهمهم فى هذا العصر الا اصلاح حالتهم الروحية ، وتنظيم هيأتهم الاخلاقية .

وهذه الغاية تهم المسلمين جميعا لانهم اذا تمكنوا منها تشرق عليهم شمس القومية الاسلامية التى جاء بها المرسلون ، وبشر بها النبيئون ، وهي لا تتوقف الا على اصلاحات اعتقادية ، وعملية تبرز بعدها الى عالم الظهور ... ومن ثم يستأنف التاريخ فى تدوين دور جديد للقومية الاسلامية (19) .

ولكن ما هو مفهوم « القومية الاسلامية » عند عمر بن قدور ، وما هو تصوره لها ؟
« ... ان الصورة الاصلية للقومية الاسلامية العامة صورة يدركها المسلم بداهة من نفس نظام الاسلام العام وفى امكان الرجل التقى ان يطلع عليها من نفس خواطر نفسه ، وهو اجس ضميره .

... وتلك الصورة تنحصر فى قضيتين أو ثلاث . الاولى الاخلاص لفالق الحب والنوى فى السر والعلانية ، والثانية الاستقامة نحو هذا المجتمع الانسانى ، ولنا ان نزيد الثالثة وهي اعتبار ان المسلمين اخوة قبل كل شيء (20) .

---

(18) أنظر م ، س ، ع 6 (1913/4/4)
(19) عمر بن قدور الجزائرى ، معضلات اليوم والغد ، الفاروق ع 4 (1913/3/14)
(20) م ، س ، ع 4 (1913/3/21)

« ... وتلك الرابطة هي قوة روحية اذا تمكنت من ضمير المرء تجعله يحن الى أخيه حنوا لا يرى به عند أخيه عيبا ينكره عليه أو شذوذا يخذله بسببه ، رابطة حث عليها الاسلام قبل ان يحث على الصلاة والصيام ، فاصبح بها أهلوها المعتنون بتنميتها متضافرين ، وقلوبهم صخور مرصوصة الى بعضها ، يتألف منها سور ضخم لا تهزه زوابع الشقاق ولا تمسه أمواج التخاذل (21) » .

من هذه الفقرات نستطيع ان نفهم بان الكاتب يريد ان تكون « القومية الاسلامية » التقاء لجميع المسلمين فى المشرق والمغرب يجعل منهم اخوة قبل كل شيء ، غاضين الطرف عن عيوب بعضهم بعضا ، حفاضا على ذلك الود ، ناكرين العصبيات الاقليمية الضيقة فى سبيل الرابطة الدينية ، متجاوزين الاختلافات المذهبية اكتفاء بالكتاب والسنة.

وهذا التضامن الذى يجعل من المسلمين بنيانا مرصوصا على أساس من التقوى هو فى نفسه غاية يرمى اليها عمر بن قدور كما صرح بذلك ، ولكن الذى نلمحه من خلال الاسطر ان وراء هذه الغاية غاية أخرى أجل واعظم اشار اليها فى قوله : « ان القومية الاسلامية التى كان أصلها ناميا فى أفئدة عرب الحجاز حتى سادوا العالم فى ظرف ثمانين عاما هي القومية التى فطر الله الناس عليها ولكن اكثر الناس لا يعلمون ... » (22) .

ولعلها اشارة من الكاتب لما أصاب الدولة التركية من ضعف وهوان . وحث غير مباشر للمسلمين ليعملوا يدا واحدة لانقاذ دولة الخلافة ، فقد عرف عند « ابن قدور » نزعة نحو الاتراك لا تقاوم (23) .

والحق ان الرجل كان نسيج وحده من بين الكتاب الجزائريين حرارة ايمان بهذه المبادىء الاسلامية كشفت عنده عن طموح فذ ، وتمرد عنيف على كل ما يقف أمام هذه الوحدة الشاملة ، وقد جسمت أمام اعيننا داعية اسلاميا يتصف بكل صفات الدعاة من حماس فى غير تهور ، وحذر فى غير جبن .

---

(21) دان النهوض ولم يدن .. م ، س ، ع 15 (1913/6/3)
(22) عمر بن قدور الجزائرى ، معضلات اليوم والغد ، الفاروق ع 5 (1913/3/28)
(23) أنظر محمد ناصر ، المقالة الصحفية الجزائرية ، جامعة الجزائر (مخطوط) ص 374

فهو لم يندفع مع آماله العريضة متجاهلا واقعه المرير ، ولـم يطـغ عليه الحماس فيضرب صفحا عن العراقيل المتوقعة ، ولكنه حذر اخوانه المسلمين من تلك الصعوبات الشاقة التى ستواجه هذه الدعوة لو قدر لها ان تخرج من حيز النظريات الفردية الـى مجـال العمـل الجماعى ٠

« ٠٠٠ ان جمال القومية الاسلامية لا يبرز الى الوجود الا اذا اتيح له اضمحلال تلك الصور التى ذكرناها ، ولا تضمحل تلك الصور الا اذا تبين للمسلمين جهلهم بشرف فطرتهم ، وفضل أنفسهم فيسعون فى مصادرته ٠ وتلك مسألة لاشك تتشعب ان احتملت مباشرة حلهـا ، والمصلحون أنفسهم فى ذلـك يختصمون ، وان اجتهدوا يتحتـم عـن اجتهادهم الاختلاف ٠٠ وعلى فرض ان المصلحين يتحدون فان العوائد التى يحاولون محوها تقاومهم بالاختلاف العام المبثوث بين الشعوب الاسلامية (24) ٠

واذا دفعته نظرته الواقعية الى الامور ، الى التصريح ، بهذه الحواجز المتوقعة ، فانه يتمتع من ناحية أخرى بروح متفائلة ، ووجه طلق فلا ييأس من أمر المسلمين رغـم واقعهم المرير ولا تتغلب عنده الزفرة المتصعدة على الابتسامة المستبشرة ٠

« ٠٠٠ والباحث الآن عن جرثومة تلك الصورة الاصلية (للقومية الاسلامية) ٠٠٠ يعثر عليها ساكنة تحت صور مدلهمة احدثها تبدل الزمان والناس واخلاقهم ومحيطهم ، ولقد حصل لها ضير عظيم من جراء طلوع تلك الصور الحاضرة ، ولكنه ضرر غير مزمن أو مهلك ، ولذلك فليس من العسير علاجه **لان هذا الـداء هو عبارة عـن نسيان الناس لاهمية نفوسهم من شدة ما أحاط بهم من هول الجهل ، وتملك الاجنبى** (25) » ٠

ذلك هو تصور « ابن قدور » للقومية الاسلامية وذلك هو ايمانه الحار بوجوبها ، واننا نقدر بان الكاتب كان على صلة وثيقة بكتابات المشارقة فى هذا الموضوع لاننـا نلمح بين أفكاره وأفكار بعضهم شبها دقيقا ٠ ولعله اطلع على ما كتبه مصطفى كامـل عن هذه القضية فى جريدة « اللواء » لانه كان من قرائها ٠ ولعلها كانت من آثر الجرائد عنده لاهتمـام مصطفى كامـل الشديد بالمسائل الاسلامية ، وعنايته الكبـرى بقضايا المسلمين ودعوته الملحة الى العناية بفكرة الجامعة الاسلامية ٠

---

(24) أنظر الفاروق ، ع 5 (1913/3/28)
(25) م ، س

وان بين الكاتبين شبها جد قريب فى فكرة التضامن الاسلامى اذ أن كليهما يؤمن بضرورة مساندة المسلمين للدولة التركية كقاعدة اسلامية تجمع قلوبهم حول رايـــة الخلافة كما يتضح لنا ذلك من فقرة لمصطفى كامل :

« فواجب المسلمين ان يلتفوا جميعا حـول رايـة الخلافة الاسلامية المقـدسة وان يعززوها بالاموال والارواح ، ففى حفظها حفـظ كرامتهم وشرفهم وفى بقـاء مجدهـا رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية ذاتها » (26) ·

(26) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، ج 5 ، ص 2I

العهد الذهبى لتجارة المسلمين في شمال افريقيا وغربها

تأليف : وو. بوفيل
عرض : حمزة ج.

عرف الاستاذ وو. بوفيل بين الباحثين بعنايته بالدراسات المرتبطة بتاريخ المسلمين فى المغرب والاندلس فكتب ثلاثة كتب معروفة ، أولها عن تجارة القوافل فى صحراء شمال افريقية ، وثانيها عن موقعة القصر ، والقصر بلدة فى الاندلس شيد بها المسلمون قلعة حصينة ، أما الكتاب الثالث وهو موضوع بحثنا فيتناول العصر الذهبى لتجارة المسلمين فى شمال افريقية وغربها عبر الصحراء الكبرى .

والمحور الرئيسى الذى يدور حوله موضوع الكتاب هو أهمية الصحراء الكبرى فى الربط بين شمال افريقية من ناحية وغرب القارة ووسطها من ناحية أخرى ، فقام المؤلف بدراسة أكاديمية مدعمة بالاسانيد والشواهد التاريخية للروابط المختلفة التى ربطت بلدان شمال افريقية ببلدان غرب افريقية ، وتتبع طرق القوافل ومراكزها عبر الصحراء الكبرى . وبعبارة أخرى فان خطورة البحث الذى قام به المؤلف تتركز فى فكرة كبرى هي أن الصحراء بما يتخللها من طرق ودروب للقوافل كانت عاملا للربط

بين شمال افريقية من ناحية وغربها من ناحية اخرى ، وبناء على ذلك فان الوحدة الافريقية حقيقة قائمة فى التاريخ رغم عوامل الطبيعة وقسوة بعض هذه العوامل · ولاشك فى أن هذه الفكرة فى حد ذاتها تهدم الراي الذى ينادى به الاستعمار اليوم ، وهو الراي الذى يستهدف تمزيق الوحدة الافريقية والذى ينادى بأن شمال افريقية لا تربطه رابطة بغربها ووسطها ، وأن الصحراء الكبرى تشكل فاصلا كبيرا يحول دون قيام روابط ذات شان بين شمال افريقية من جهة وغربها ووسطها من جهة اخرى ·

وقد قسم المؤلف كتابه الى اثنين وعشرين فصلا خصص الفصل الاول منها لدراسة الجغرافية التاريخية لشمال افريقية والصحراء الكبرى ، وركز كلامه فى الشطر الاول عن مشكلة قلة المياه فى شمال افريقية ، وهي المشكلة التى لجأ الرومان فى محاولة التغلب عليها ببناء السدود والخزانات فضلا عن حفر الابار · أما الشطر الثانى الخاص بالصحراء فقد تعرض فيه المؤلف الى التاريخ القديم للصحراء الكبرى وكيف أنها كانت مطيرة فى العصور الجيولوجية البعيدة بدليل ما فيها حتى الآن من بقايا آثار تدل على وفرة ما كان فيها من نبات وحيوان · ثم يتتبع المؤلف بعد ذلك التطورات التى ألمت بالصحراء والتى حولتها تدريجيا الى حالة جفاف شبه شامل نتيجة لقلة الامطار ، الا بعض مراكز محدودة توفرت لها المياه الباطنية أو غير الباطنية مما جعلها محطات طبيعية لتجمع سكان الصحراء من ناحية واستراحة التجارة والمسافرين من ناحية أخرى ·

وتحت تأثير تلك الظروف الطبيعية القاسية أحس سكان الصحراء الكبرى دائما بأن المسافة بين الحياة والموت ضيقة جدا ، وأن حياتهم وحياة مواشيهم تتوقف على جرعة الماء التى كثيرا ما يفتقدونها فلجأوا الى المحافظة على حياتهم بكافة الطرق المشروعة وغير المشروعة ، حينا بالهجرة الفصلية الموسمية الى المناطق التى يسقط بها بعض المطر وبالتالى يتوافر فيها بعض الكلأ ، وأحيانا بتنظيم الاغارات على البلاد الواقعة عند أطراف الصحراء لنهب ما يمكن نهبه وسلب ما يمكن سلبه ·

وفى الفصل الثانى يتكلم المؤلف عن شمال افريقية والصحراء الكبرى قبل سيادة روما · وقد استشهد المؤلف ببعض كتابات هيرودوت التى وصف فيها حياة الاهالى فى جوف الصحراء وصفا واقعيا ينطبق على ما وجد أخيرا من نقوش ورسوم معاصرة ، مما يدل على ان ثمة صلات كانت قائمة عندئذ بين سكان جوف الصحراء من ناحية وسكان المناطق والاقاليم الساحلية فى شمال القارة من ناحية أخرى · ولما كان

الجمل غير معروف فى شمال افريقية عندئذ ، فان المؤلف يرجح أن الثور كان وسيلة الانتقال والربط بين شمال افريقية وغربها عبر الصحراء ، بدليل أن الثور لا يزال من الحيوانات المألوفة الشائعة الاستعمال فى السودان الغربى وفى كثير من أجزاء الصحراء الكبرى من فزان ٠ ويقارن المؤلف بين الجمل والثور فى قوة احتمال العطش والمقدرة على حمل الاثقال والسير مسافات بعيدة دون ملل أو تعب، ويستخلص من ذلك أن التقارب شديد بينهما فى تلك النواحى مما لا يجعل مبررا للاعتقاد فى أن تجارة القوافل فى الصحراء لم تنشط الا بوصول الجمل الى شمال افريقية ٠ واذا كان الفينيقيون قد ركزوا نشاطهم فى الجانب البحرى واكتفوا بالمستعمرات التى أسسوها لانفسهم فى شمال افريقية ، فان القرطاجيين مدوا نشاطهم الى داخل الصحراء وأقاموا علاقات تجارية قوية مع أهالى الصحراء الكبرى وغرب افريقية ٠ وهكذا حتى كان القرن الثانى قبل الميلاد عندما انتهت الحروب البونية بين روما وقرطاجنة بسقوط الاخيرة مما اذنْ بسيادة روما على حوض البحر المتوسط ٠

ويبدو أن روما نظرت نظرة عداء الى أهالى شمال افريقية والصحراء ٠ ويشرح المؤلف فى الفصل الثالث من الكتاب كيف أن الرومان أطلقوا اسم البرابرة ــ ومنها اشتق اسم البربر ــ على أهالى شمال افريقية ، كما رفضوا المحافظة على العلاقات الطيبة التى ربطت قرطاجة بقبائل الصحراء الكبرى ، حتى غدت تلك الصحراء فى العصر الرومانى مأوى لاعداء روما والخارجين عليها ٠ على أن ثمة ثورة خطيرة تعرضت لها الصحراء الكبرى وصل اليها الجمل عندئذ ٠ ولكن الجمل أخذ ينتشر بعد ذلك تدريجيا فى الصحراء الكبرى ويرجع الفضل الى الرومان فى اتساع نطاق استخدامه ، ولو أن الوثائق الاولى التى تحت ايدينا تشير الى أن أعداء روما والخارجين عليها من أهل الصحراء ، كانوا أسبق من الرومان فى استخدام الجمل ٠ ومهما يكن من أمر فان الجيوش الرومانية أخذت تستخدم الجمال فيها بين سنتى 46 ق‌م و363 م ٠ كذلك أدى انتشار استخدام الجمال فى شمال افريقية الى تسهيل هجرة القبائل من مكان الى آخر ٠ وهكذا أوغل الرومان فى الصحراء الى فزان وغيرها من المواقع الداخلية ، وأخذت تجارة القوافل تنتشر عبر الصحراء الكبرى تحمل الى روما خيرات افريقية وبخاصة الذهب والعاج وريش النعام والعبيد ٠

أما الفصل الرابع من الكتاب فقد جعل المؤلف عنوانه « الطوارق » واستهله بأن قسم سكان الجزء الداخلى من شمال افريقية الى قسمين : زنوج وغير زنوج أو

حاميين · وكان أن ركز المؤلف كلامه على الفريق الاخير ، فقال ان قبائل الطوارق من الحاميين كانوا ينتشرون فى الصحراء الكبرى جنوبى النطاق الجبلى الذى يمتد فى شمال افريقية من الغرب الى الشرق ، وقد اطلق عليهم العرب اسم الملثمين نظرا لان رجالهم اعتادوا وضع اللثام على وجوههم بحيث لا يظهر من الوجه سوى العينين · وبوصول الجمل الى الطوارق أصبحوا المتحكمين فى طرق القوافل وتجارة الصحراء الكبرى · وقد أشار المؤلف الى أربعة طرق كبرى فى الصحراء الافريقية الكبرى بجنوبها : أولها طريق سجلماسة وهو الطريق الذى يؤدى الى مناجم الذهب فى السنغال وأعالى النيجر وثانيها طريق غدامس - غات ، وثالثها طريق طرابلس - فزان - بحيرة تشاد وأخيرا فى أقصى الشرق يأتى طريق برقة - كفره فى وسط افريقية · وكانت السيادة للطوارق على الطرق الثلاثة الاولى ·

على أن ثمة أهمية خطيرة للطوارق فى تاريخ القارة الافريقية تتلخص فى أنهم أخذوا يعتنقون الاسلام عندما تم للعرب فتح المغرب فى القرن السابع للميلاد ، ومن ثم قام الطوارق بدور الوسيط بين المغرب العربى من ناحية ، واقاليم غرب افريقية من ناحية أخرى ، واليهم يرجع الفضل فى نقل ديانة الاسلام وثقافته الى تلك الاقاليم · وقد خصص المؤلف الفصل الخامس من كتابه للكلام عن العرب فى شمال افريقية وذكر فى صفحة 65 ما نصه « لم تكن هناك قبل وصول العرب الى افريقية أية معلومات معروفة عن الاقاليم الافريقية جنوبى المغرب · ونحن من الناحية العملية ندين بكل ما نعرفه عن التاريخ الاول للاقاليم الداخلية فى افريقية الى مجموعة من الكتاب العرب وأهمهم المسعودى وابن حوقل والبكرى والادريسى وياقوت الحموى وابن بطوطة وابن خلدون · ونحن نشعر فى هذا الكتاب الذى اعتمدنا فيه الى حد كبير على ما كتبه أولئك العلماء ، بأننا ندين لهم بالشىء الكثير ، ولا اقل من أن نخص كلا منهم بكلمة قصيرة»·

وبعد أن تكلم المؤلف كلمة موجزة عن أهمية كل واحد من أولئك الاعلام ، انتقل فى الفصل السادس من كتابه الى الكلام عن المرابطين · ذلك أن الملثمين ما كادوا يعتنقون الاسلام حتى اشتدت حماستهم لهذه الديانة الجديدة فاندفعوا فى صورة موجة عارمة صوب جنوب الصحراء لنشر الاسلام بين القبائل الزنجية فى غرب افريقية · وقد ترتب على هذه الموجة وصول الاسلام الى غانا ، ولكن الملثمين لم يقنعوا بهذه النتيجة بعد عدة قرون من الجهاد ، فقرروا توحيد صفوف قبائلهم ، واستدعوا أحد فقهاء المالكية - ويدعى عبد الله بن ياسين - من المغرب الاقصى ليثبت

دعائم الاسلام وقواعده الصحيحة فى قلوب الناس · وكان أن أقام عبد الله بن ياسين فى رباط فى جزيرة عند مصب نهر السنغال حيث ذاع صيته وكثر عدد أتباعه ومريديه الذين أطلق عليهم اسم المرابطين ، ومن ثم بدأ حركة جهاد واسعة أوصلت المرابطين الى مدينة أودغشت جنوبا والمغرب الاقصى والاندلس شمالا · وهكذا ارتبطت غانا والمغرب الاقصى برباط الاسلام · ولم تقف الصحراء الكبرى حائلا دون انتشار الاسلام فى السنغال والنيجر ، حتى غدت مدينة تنبوكتو ومدينة جنى من أكبر مراكز الاسلام فى غرب افريقية · ولاشك فى أن هذه الوحدة الدينية والثقافية التى ربطت شمال افريقية بغربها ساعدت على ازدياد النشاط التجارى فى ذلك الجزء من القارة فازدهرت الدول الاسلامية التى قامت فى غانا ، وحاول ملوك هذه الدول أن يحاكوا المظاهر الاسلامية فى حياتهم ونظمهم ، مما شرحه المؤلف فى الفصل السابع من كتابه ·

ومن ملوك دول غرب افريقية المشهورين فى القرن الرابع عشر الملك منسا موسى الذى اختصه المؤلف بالفصل الثامن من كتابه · وقد خرج منسا موسى من بلاده سنة 1324 لاداء فريضة الحج وصحبه عدد كبير من أتباعه ، فمر بمصر حيث أنفق عن سعة استرعت نظر المعاصرين وقدم هدايا جليلة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطان المماليك فى مصر ومن هذه الهدايا حمل جليل من الذهب الخام · أما السلطان الناصر محمد فقد أكرمه وبعث اليه والى أفراد حاشيته بالخلع والسيوف ، كما أمده بالخيول والجمال والمؤونة ليتمكن من مواصلة سفره الى الحجاز · هذا الى أن منسا موسى أراد أن يبسط حدود دولته ـ التى عرفت باسم سلطنة مالى ـ فقام بأعمال توسعية مكنته من السيطرة على السهول الفسيحة الممتدة من السنغال غربا حتى اقليم تشاد شرقا ·

على أن أحوال سلطنة مالى لم تلبث أن تعرضت للتدهور بعد عهد منسا موسى · وقد قام الرحالة المغربى ابن بطوطة برحلته المعروفة فى ذلك الدور ، فأمدنا بمعلومات شيقة جعلت المؤلف يخصص الفصل التاسع من كتابه عن سجلماسة سنة 1352 فوصل سلطنة مالى بعد شهرين ، ووصف بلاط ملكها وصفا طريفا ، ووصف أهل السودان (الغربى) بأنهم من أعظم الناس تواضعا لملوكهم ·

على أن ثمة سلطنة أخرى فى السودان الغربى صار لها شأن فى أواخر القرن الخامس عشر وفى القرن السادس عشر هي سلطنة سنغى قرب منتصف نهر النيجر · وقد خضعت هذه الدولة فى أول أمرها لسلطنة مالى ولكنها لم تلبث أن استقلت وقامت

بحركة توسعية حتى امتد نفوذ سلاطينها الى شمال نيجريا حيث نشروا الاسلام والثقافة الاسلامية ·

وقد تكلم المؤلف فى الفصل العاشر من كتابه عن هذه السلطنة وأشار الى سلطانها سنى على (1464 – 1493) الذى كون جيشا كبيرا استولى به على مدينة تمبكتو وتمكن بواسطته من نشر نفوذه على منطقة واسعة من سهول غرب افريقية · وقد خلف سنى على فى سلطنة سنغى اسكى محمد الذى قام بأداء فريضة الحج ومر بمصر سنة 1494 فى موكب حافل لا يقل فى مظهره وروعته عن موكب منسا موسى ·

والى هنا يعترف المؤلف بأن ظاهرة الوحدة الافريقية كانت أتم ما تكون بين المغرب العربى من جهة وغرب افريقية من ناحية أخرى · ذلك أن انتشار الاسلام على أيدى البربر بين أهالى غرب افريقية جعل هؤلاء الآخرين لا يتشربون تقاليد الاسلام فحسب بل يتأثرون أيضا بالثقافة العربية الاسلامية ، والباحث يقرأ ما كتبه ابن بطوطة وغيره من المعاصرين فلا يسعه الا أن يشهد بقوة الروابط الدينية والتجارية والثقافية التى ربطت بلاد غرب افريقية بالمغرب العربى ·

هذه الروابط وغيرها بين بلدان شمال افريقية وغربها فى ظل الحضارة العربية الاسلامية ذكرها بوفيل فى صورة أو أخرى فى الفصول العشرة الاولى من كتابه · غير أن الاستعمار الغربى لم يشأ أن يترك افريقية للافريقيين ، واختار أن يتدخل ليمزق العلاقات الخالدة التى تربط أهالى شمال افريقية بأهالى غربها · وكان أن بدأت فى القرن الخامس عشر جهود بعض القرى البحرية فى جنوب أوروبا وغربها للبحث عن طريق جديد الى تجارة التوابل غير طريق دولة المماليك فى مصر والشام · وقد شرح المؤلف فى الفصل الحادى عشر تلك الجهود المبذولة للوصول الى شواطىء غانا · وحتى فى جهود الاوروبيين لاكتشاف افريقية لم يستطيعوا الاستغناء عن معارف العرب وما دونوه فى كتبهم من معلومات وما رسموه من خرائط · وثمة شخصية عربية أفاد منها الاوروبيون فائدة ضخمة وأفرد لها المؤلف الفصل الثانى عشر من كتابه ، وهى الحسن الفاسى الذى أسره القراصنة الاوروبيون سنة 1518 وأطلقوا عليه اسم ليو الافريقى · وقد كتب الحسن الفاسى هذا كتابا ضمنه معلوماته عن افريقية وأفاد منه الاوروبيون فائدة ضخمة منذ القرن السادس عشر · ويذكر الاستاذ بوفيل ان ما كتبه الحسن الفاسى ليدل دلالة قاطعة على أن تجارة السودان الغربى لعبت دورا كبيرا فى الحياة الاقتصادية للمغرب العربى ·

وقد ساعد الغرب الاوروبى فى تحقيق سياسته الاستعمارية فى غرب افريقية أن أحد سلاطين مراكش وهو مولاي أحمد المنصور الذي خصص له المؤلف الفصل الثالث عشر من كتابه ـ أرسل حملة ضخمة لغزو السودان الغربى سنة 1590 ، مما أدى الى انكماش دولة سنغى ثم القضاء عليها ٠ ولكن المراكشيين لم يستطيعوا الاحتفاظ بغرب افريقية فتركوه وشأنه بعد أن حطموا قوته المعنوية ، مما جعل السودان الغربى يواجه مصيره منفردا ٠ وقد تناول المؤلف فى الابواب التالية أحوال السودان الغربى أثناء الغزو المراكشى وبعده ، مع الاشارة الى محاولات الاوروبيين وبخاصة منذ القرن السابع عشر للوصول الى غرب افريقية والسيطرة على تلك البلاد واحتكار خيراتها وبخاصة الذهب والتوابل ٠

حقيقة أن أهالى غرب افريقية لم يرضوا عن سوء أحوالهم ، فظهرت حركات اصلاحية تطالب بالعودة الى تقاليد الاسلام والتمسك بنظمه وعاداته وذلك كوسيلة لمقاومة الخطر الاوروبى الذى أخذ يزداد وضوحا ٠ ومن أمثلة هذه الحركات الاصلاحية حركة عثمان بن فودي فى نيجيريا فى أوائل القرن التاسع عشر ٠ وقد تكلم الاستاذ بوفيل عن حركة عثمان هذه بالتفصيل فى الفصل الحادى والعشرين من كتابه ٠ ولكن هذه الحركات الاصلاحية لم تستطع أن تنقذ غرب افريقية من براثن الاستعمار وبخاصة بعد أن امتدت يد الاستعمار الى شمال افريقية ٠ وبسيطرة الاستعمار الغربى على شمال افريقية من ناحية وغربها من ناحية أخرى انتهى العصر الذهبى لتجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى وبدأ عصر آخر اعتمد فيه الاستعمار على سفنه التى تجوب البحار لاستنزاف موارد القارة الافريقية ٠

التيســـير في أحكـــام التسعـــير
لأبى العبـــاس أحمد بن سعيـــد المجيلدى

تقديم وتحقيق :
الاستاذ موسى لقبال

عرض : **عمرو بـن خروف**

لقد صدر سنة 1971 عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع كتابان من الحجم المتوسط ؛ الاول من تقديـــم وتحقيق الاستاذ موسى لقبال أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة الجزائر وعنوانه « التيسير فى أحكام التسعير » .

والثانى يحمل عنوان « الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب العربى نشـأتها وتطورها » وهو من تاليف الاستاذ موسى لقبال أيضا .

وكما هو واضح فان الكتابين يبحثان فى موضوع الحسبة أو أحلى ركائزها كالتســـير .

وصدور هذين الكتابين فى موضوع واحد ينم عن اهتمام الاستاذ موسى لقبال بموضوع الحسبة المذهبية ، وقد قال صراحة : « ان رغبتى الخاصة جعلتنى اختار الحسبة فى المغرب موضوعا لبحثى هذا ، بالاضافة الى ذلك ما لاحظته فعلا من ندرة التاليف فى بيئتنا حول هذا الموضوع » (1) .

(1) لقبال موسى : الحسبة المذهبية ص : 41 .

وللاستاذ موسى لقبال كتاب آخر فى تاريخ المغرب الاسلامى ٠٠٠ ونحب أن نقدم لجمهور قراء الاصالة أحد الكتب الثلاثة ، وقد رأينا أن نقدم فى هذا العدد ، « كتاب التيسير فى أحكام التسعير » الذى ظل مخطوطا منذ أن وضعه مؤلفه فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر ميلادى) ٠

واذا نحن أصبحنا ـ بفضل تقديم وتحقيق الاستاذ موسى لقبال لكتاب التيسير فى أحكام التسعير ـ نعرف من هو صاحب هذا الكتاب فان المحقق قد كلفه الكشف عن هوية واضع المخطوط جهدا كبيرا قبل أن يتوصل الى الاسم الحقيقى لمؤلف الكتاب والى من ينتسب والى معرفة عصره وازلة الغموض الذى ران على شخصيته وأوقع مستشرقين كبيرين فى الخطا وهما فانيان ، وليفى بروفانسال ٠ فمن هو مؤلف التيسير فى أحكام التسعير ؟

المـــؤلف :

انتهى المحقق الى أن مؤلف التيسير فى أحكام التسعير هو **أبو العباس ابن سعيد المجيلدى** الذى توفى سنة 1094 هـ 1683 م ، ولم تعط المصادر تاريخا لميلاده ٠

كان المؤلف قاضيا فى فاس الجديدة ثم مكناسة الزيتون ٠٠٠ تولى القضاء فى أواخر عهد أحمد المنصور الذهبى أو على الاقل فى عهد أبنائه واستمر فى القضاء حتى بعد سقوط الدولة السعدية وقيام دولة العلويين ٠

ولعل فترة الاضطرابات التى عاش فيها المؤلف هى السبب فى الغموض الذى أحاط بحياته ، وجعلها غير بارزة فى فترة الفتن التى حدثت بين أبناء أحمد المنصور الذهبى والتى كان فيها أحمد بن سعيد يؤثر الصمت عن القيام بأى دور هام فى خضم الاحداث الخطيرة ، ولكنه لا يلبث أن يصبح من « أهل الحل والعقد » مع قيام دولة العلويين ٠

ومن صفات أحمد بن سعيد التواضع ودماثة الخلق والعدل ، واشتهر المؤلـف زيادة عن القضاء بالتدريس للفقه خاصة ومن شيوخه : أبو محمد عبد القادر الفاسى ، وأبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى صاحب « الرحلة » وقد أجاز هذا الاخير تلميذه وأثنى عليه ٠

ولاحمد بن سعيد تآليف أخرى فى ميدان الفروع والنوازل والاحكام .

التيسير فى احكام التسعير فى ثوبه الجديد :

اعتمد المحقق لكتاب التيسير فى أحكام التسعير على ثلاث نسخ محفوظة هى : نسخة المكتبة الوطنية بالجزائر ، ونسخة المكتبة الكتانية بالرباط ، ونسخة دار الوثائق والمخطوطات بخزانة الرباط . وكان اعتماده بالدرجة الاولى على نسخة الجزائر لانها أكمل نسخ المخطوط ، وفيها فروع وتنبيهات سقطت من نسختى الرباط ، ولان نسخة الجزائر تكاد تكون خالية من الاخطاء الاملائية .

والنص المحقق قصير . فهو فى نسخة الجزائر يتالف من عشر ورقات أما فى النسختين الاخريين قد يزيد عن أربع عشرة ورقة (2) .

غير أن الاستاذ موسى لقبال الذى قام بتقديمه وتحقيقه ووضع له كشافا عاما بالمصطلحات وآخر بالفهارس وأثراه بالملاحق بلغ عددها أحد عشر ملحقا جعله يبعث من جديد فى ثوب أنيق لطيف .

وكتاب التيسير فى أحكام التسعير الذى بين أيدينا يتالف من 152 صفحة موزعة كالآتى :

36 صفحة خصصها لمقدمة الكتاب ومصادر تحقيقه .

53 صفحة لمتن الكتاب ، أما الصفحات الباقية فتشتمل على المصطلحات والفهارس والملاحق ، ونماذج من نسختى المكتبة الكتانية بالرباط والمكتبة الوطنية بالجزائر .

وقد اتبع المحقق فى الصفحات الـ 36 الاولى من الكتاب لتحقيق مخطوطه خطة تعتبر نموذجا يمكن أن يحتذى فى تحقيق مخطوطات شبيهة الصعوبة بالتى اعترضت محقق كتاب التيسير فى أحكام التسعير ومراحل الخطة هى :

1 ـ استشارة كتب الفهارس لاختيار المخطوط

2 ـ تحديد عصر المؤلف والقاء ضوء عليه

(2) أبعاد ورقات نسخة الجزائر 172 × 221مم .
أبعاد ورقات نسخة دار الوثائق بالرباط 165 × 113مم .
أبعاد ورقات نسخة المكتبة الكتانية 145 × 100مم .

3 ـ تحقيق اسم المؤلف ونسبه

4 ـ دراسة شخصيتـــه

5 ـ شيوخ المـؤلف وتلاميذه

6 ـ تآليفـــه

7 ـ وفاتـــه

8 ـ نســـخ المخطـوط

9 ـ محتـــوى المخطوط

10 ـ مصادر المخـــطوط

سبـــب التاليـف :

يذكر أحمد بن سعيد أن الحامل له على تســـطير هذه الأوراق وجمع نقول الائمة بعد الافتراق الحاح بعض من ابتلى بخطة الحسبة (3) ·

و « الحسبة نظام للرقابة على سير الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بطريقة تجعلها فى اطار قواعد الشرع الاسلامى وفى نطاق المصلحة العامة للمجتمع » (4) ·

وسمى الكتاب بالتيسير فى أحـــكام التسعير لأن الجـزء الأكبر من الكتاب مخصص لقضية التسعـير ·

والتسعير فرع هام من فروع الحسبة ، وقد خصص له المؤلف أربعة أبواب هى : الثانى والثالث والرابع والسادس بالاضافة الى المقدمة ·

مصادر الكتـــاب :

أعتمد المؤلف على مصـــادر عديدة ولكنه اعتمد اعتـمادا كليـا على ثلاثة كتب لعلماء من افريقية هم : ابن هارون فى مختصره وابن عرفه فى مختصره والونشريسى فى معياره ·

---

(3) أحمد بن سعيد المجيلدى : التيسير فى أحكام التسعير ص : 38 تقديم وتحقيق موسى لقبال .

(4) موسى لقبال : المرجع السابق ص : 21 .

أقســـام المخطــوط :

ينقسم نص هذا المخطوط الى مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة ·

والابواب فى نص المخطوط لا تزيد عن صفحة واحدة كما هو الشأن فى الباب الثالث مثـــلا ·

ويقدم مؤلف الكتاب بنفسه أقسام كتابه الذى يعبر عنه بـ « هذه الاوراق » فيقول : أما المقدمة ففى تعريف ما رمت جمعه (5) ، وأما الابواب فهى :

الباب الاول : فى فضل من قام بهذه الخطة الشريفة التى هى الحسبة وشروط المحتسب ·

الباب الثانى : فى حكم التسعيـــر ·

الباب الثالث : فى الاشياء التى تسعر والتى لا تسعر ·

الباب الرابع : فيما يسعر عليه وما لا يسعر عليه ·

الباب الخامس : فى المعيار الشرعى والعادى ، وما يباع وزنا أو كيلا أو بهما وفى كيفيتهمـــا ·

الباب السادس : فى رد سعر الواحد والاثنين لسعر الجماعة ·

البا بالسابع : فى الاشياء التى يمنع بيعها أو يكره فى الاسواق ، وفى منع ذوى العاهات والقروح من بيع المائعات وغيرها ·

الباب الثامن : فى وجوب رفع ضرر عام من الازقة والرحاب وغيرها ·

الباب التاسع : فى حكم اختلاط المسلمين فى أحكامهم مع أهل الذمة والتشبه بهم ·

الباب العاشر : فى بيان الغش وما يعاقب به من ظهر عليه أو اتهم به ·

وأما الخاتمة ففى جمع مسائل لها تعلق بالمعنى الذى هو أساس الكتاب وعليه المبنى وسميته « التيسير فى أحكام التسعير » (6) ·

---

(5) أى فى التعريف بالتسعير وكلام الائمة فيه لغة واصطلاحا على اختلاف التفسير ، أنظر كتاب التفسير ص : 41 .

(6) أحمد بن سعيد نفس المصدر . ص : 39 ـ 41 . تحقيق موسى لقبال .

أهميـة الكتـــاب :

لكتاب التيسير فى أحكام التسعير أهمية فهو يعطينا صورة عن خطة الحسبة فى الصورة المتأخرة لها ، والاطلاع عليه يغنى عن الاطلاع على كتب أحكام السوق .

وفائدة مثل هذا الكتاب وكتب الحسبة العامة كبيرة اذا ما استعين بها ويجب الاستعانة بها فى وضع خطة ونظام متكامل للرقابة على شؤون حياتنا اليومية من اقتصادية واجتماعية وثقافية وأخلاقية سيما وأن البديل للحسبة لم يثبت فعاليته ، فصاحب الحسبة لم يكن ليترك ما نهى الشرع عن بيعه أو شرائه أن يباع فى أسواق المسلمين ، وها نحن نرى الخمر مثلا يباع ويشترى فى محال المسلمين للمسلمين علانية !!

ولم يكن صاحب الحسبة أيضا ليتهاون مع من يشتغل بالكهانة والخط والسحر حتى تتفشى فى القرى والمدن أو يتسامح مع المفسدين والمتخنثين ، وغير ذلك من الاعمال والصفات المنافية للاخلاق والمضرة بالصالح العام التى كانت الحسبة شديدة الحرص على مقاومتها والقضاء عليها قبل تفشيها وانتشارها .

تقييـــم الجهـــد :

لاشك أن تحقيق اى كتاب يتطلب بذل جهد كبير ربما كان هذا الجهد الذى يصرفه المحقق يكفى لتاليف أضعاف ما يتضمنه الكتاب المحقق من صفات .

وأن تحقيق كتاب قديم أو مخطوط مغمور واعادة الحياة له أهم من تاليف كتاب جديد فى نفس الموضوع وبناء على هذين الموضوعين يمكننى أن أقول : ان من يقرأ او يقف على كتاب التيسير فى أحكام التسعير الذى قام الاستاذ موسى لقبال بتقديمه وتحقيقه واثرائه بفهارس وملاحق يقدر الجهد الكبير الذى بذله المحقق فى سبيل اعادة بعث هذا الكتاب الى الوجود من جديد فى ثوب جميل صحيح بعد أن ظل زهاء ثلاثة قرون محفوظا فى أركان المكتبة عرضة للتلف والتأريض .

وانه لمن الاحسن والأفيدان يقع الاهتـــمام بالتصحيحات الشـــكلية لكل الكتب والمقالات قبل صدورها ووصولها الى أيدى القراء ، ومن قبيل لفت النظر ألاحظ ان اسم مؤلف كتاب اليسير فى أحكام التسعير كما حققه الاستاذ موسى لقبال هو أبو العباس أحمد بن سعيد المجيلدى وليس أحمد سعيد المجيلدى كما وقع على الغلافين الخارجى والداخلى ·



قلوب ختم الله عليها فلم تسمع نداء ربها

سليمان المدني
عضو هيئة التوجيه الديني
بوزارة الشؤون الدينية - الجزائر

بدانا فى عدد 39/40 من الاصالة بتاريخ ذى القعدة ذي الحجة 1396 هـ نوفمبر - ديسمبر 1976 م بتفسير القران فى خطب الجمعة تفسيرا مبسطا نستقيه من اخر ما وصلت اليه التفاسير ، وما صار اليه البحث العلمى - بقدر الامكان - ! ، وذلك تعميما للفائدة كما يقال ، وكلمة التعميم هنا فى الصميم يطابق فيها الحال المقال ، حيث ان الخطبة نفسها تذاع على امواج الاثير من الجامع مباشرة ، فيستفيد منها لا جمهور المصلين فحسب ، بل جميع من يستمع الى المذياع داخل البلاد وخارجها ، من أستاذ جامعى يساعد زوجته فى المطبخ وقعد عن صلاة الجمعة ، الى الفلاح ، والراعى ، فى حقل هذا وغابة ذاك ، بفضل هذه الآلة العجيبة التى تسمى الترانزيستور · «الأصالة»

الحمد لله الذى أحيا قلوب المؤمنين بالقرآن ، وأمات قلوب الكافرين بالمكابرة والعصيان ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وأشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى بلغ رسالة القرآن للكفرة والمنافقين وأهل الايمان ، صلى الله عليه وعلى آله ورضي الله عن الصحابة والتابعين الى يوم الدين ·

أما بعد ، أيها المسلمون فقد تقدم فى بداية سورة البقرة التوضيح الكامل لعباد الله المتقين والمؤمنين ، فالمتقون آمنوا بالغيب وداوموا على الصلاة ، وبذلوا مما رزقهم الله فى سبيل الطاعات ، أما المؤمنون فآمنوا بالله وبما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أنزل من قبله ، وأيقنوا بيوم الجزاء والحساب ، فهؤلاء وأولئك شملهم رضا الله ورضوانه ، وغمرتهم رحمته واحسانه ، فكانوا من الفائزين فى الدارين · اذا عرفنا الايمان والمؤمنين والتقوى والمتقين ، فلا بد أن نجد فى الطرف المقابل صفحة الكافرين والمنافقين قال تعالى : **« ان الذين كفروا سواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم »** ·

وقد جرت سنة القرآن فى التعبير عن هذه الطائفة بالكافرين ، والفاسقين ، والخاسرين ، والظالمين ، والمجرمين · « ان الذين كفروا » اي غطوا الحق وستروه ، ووضعوا الاشياء فى غير موضعها ، وخرجوا عن طاعة الله ورسوله بمحض اختيارهم

1) خطبة الجمعة ليوم 19 جمادى الثانية 1398 هـ 26 مايو 1978 م ·

وبحكم اندفاعهم ، وقصر عقولهم فوصلوا الى حافه الخسران ، قال تعـالى فيهـم : « **الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون** » ، « **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليـه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب** » فهؤلاء قد خيـم الجهـل عليهم ، وتحجرت قلوبهم ، وماتت ضمائرهم ، وفقدوا كل احساس وشعور « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » لان الكفر من معانيه : الستر والتغطية والظلام والسحاب · ان هؤلاء الكافرين لا يؤمنون بما دعا اليه رسول الله وبما انزل عليه من ربه كما قـال تعالى : « **ان الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل اية حتى يـروا العذاب الاليم** » انهم صمموا على الكفـر والعناد فقد نفروا مـن الايمان ، وكفـروا بالقرآن ، وعصوا الرحمان ، وتعادل لديهم الانذار وعدمه فهم لا يؤمنون بما جئتهم به · وقال على ابن ابى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « **ان الذين كفـروا سـواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** » قال كان رسول الله صلى اللـه عليه وسلم يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن الا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الاول ، ولا يضل الا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الاول » ·

اختلف المفسرون فى أن : كفر الكافر الاصلى اقبح ، أم كفر المنافق ؟

قال قوم كفر الكافر الاصلى أقبح لانـه جاهـل بالقلب كاذب باللسان · والمنافق جاهل بالقلب صادق باللسان ·

وقال آخرون : بل المنافق أيضا كاذب باللسان ، فانه يخبـر عن كونـه على ذلك الاعتقاد مع أنه ليس عليه · ولذلك قال تعالى : « **قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم** » ·

وقال: « **والله يشهد ان المنافقين لكاذبون** » ·

ثم ان المنافق اختص بمزيد أمور منكرة ذكرها الامام الرازى فى تفسيره ، وهي أن المنافق قصد التلبيس والكافر الاصلى ما قصد ذلك ·

والثانية ان الكافر على طبع الرجال ، والمنافق على طبع الخنوثة ·

والثالثة ان الكافر ماض لنفسه بالكذب ، بل استنكف منه ولم يرض الا بالصدق والمنـافق رضـي بذلك ·

والرابعة أن المنافق ضم الى كفرة الاستهزاء ، بخلاف الكافر الاصلى ، ولاجل غلظ كفره قال تعالى : « **ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار** » ·

وذكر الرازى فى تفسيره كذلك ما يوضح معنى قوله تعالى : « **الذين كفروا** ··· الآية » وأرشدنا الى ما اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم المراد بقوله : « الذين كفروا » هم رؤساء اليهود المعاندون الذين وصفهم الله تعالى بأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما · وقال آخرون بل المراد قوم من المشركين كأبى لهب وأبى جهل والوليد ابن المغيرة واضرابهم ، وهم الذين جحدوا بعد البينة ، وانكروا بعد المعرفة ، ونظيره ما قاله تعالى : « **فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه** ·· الآية » · وكان الرسول عليه السلام حريصا على أن يؤمن قومه جميعا حيث قال الله تعالى له : « **فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا** » وقال : « **أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** » ثم انه سبحانه وتعالى بين له عليه السلام أنهم لا يؤمنون ليقطع طمعه عنهم ولا يتأذى بسبب ذلك ، فان اليأس احدى الراحتين ·

فالرسول عليه السلام بعثه رحمة للعالمين كما قال : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » ولكن عناد المشركين وتكبرهم جعلهم منكرين غير معترفين بهذه الرسالة السماوية ، ولا بمن جاء بها فكانت المعارضة شديدة من المشركين ، فلم ينتفعوا بالقرآن ، ولم يهتدوا الى نور الايمان : « **لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها** » · وتلك هي نهاية العناد ، ولو أنهم فتحوا قلوبهم بالتأمل واسماعهم بالاصغاء الى ما يتلى من آيات بينات ، وأبصروا ما خلق الله من كائنات ، لتاثروا بالقرآن ، واهتدوا الى توحيد الرحمان « **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم** » وقال : « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون** » ·

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك · وأزل حيرتنا وغفلتنا واجعلنا من الذاكرين الشاكرين فى كل حين آمين والحمد لله رب العالمين ·

الخطبة الثانية

الحمد لله الذى اكرمنا بالسمع والبصر ، فنحمده حق حمده بالثناء عليه والشكر، نشهد أن لا اله الا الله شهادة تنجينا يوم الحشر ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده

ورسوله الشافع فى أمته يوم الحساب والنشر . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه الى يـوم الـدين .

أما بعد أيها المسلمون فان الله أنذر أهل الكفر ، بما أنزل على نبيه من الذكر ، ودعاهم الى التدبر ، والى ما يحييهم وينبه قلوبهم ، ويؤثر فى أسماعهم ، فأبى أكثر الناس الا كفورا ، وأصروا على عدم الايمان بالله وبرسوله لذلك كله : « **ختم اللـــه على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم** » طبع اللـــه وختم وكتم على هذه القلوب المريضة الفاسدة التى لا تفرق بين الحق والضـــلال ، كما طبع على أسماع هؤلاء المكابرين فكأنه غطـى آذانهم وسترها وسدها فـلا تسمع انذارا ، لا ســرا ولا جهارا ، وجعل سترا كثيفـا على أبصارهم فـلا يرون حقا ، ولا ينطقون صدقا ، وذلك لانهم أختاروا طريقة العناد ، ولم يعبدوا رب العباد . « **أفمـن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فـلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون** » علم الله صنعهم وتصرفهم وقد حكم عليهم ، فلا معقب لحكمه فختم وكتم ، بعد انذار وتحذير ، من الله العليم الخبير ، ان قلوب الكفار اغلقت على الكفر ، وأحكـم اغلاقها بالكتم والختم . وهذا هـو مصداق قوله تعالى فيهم وفيمن ســار على طريقهم « **لهـم قلوب لا يفقهون بهـا ، ولهم أعـين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها** » . أي زودهم الله بالمعرفة بالقلوب الحية النابضة وبالاعين الباصرة ، وبالاسماع المرهفة ، فعطلوها ولجوا فى العناد والالحاد فجاء حكم الله عليهم قاسيا ، وخصوا بالعذاب العظيم الذى كان عاتيا ، « **وأمـا من خفت موازينه ، فامه هاوية ، وما أدراك ما هية ، نار حامية** » .

وينبغى للمسلم أن يتعظ بما صار اليه الكافر المكابر ، وأن يسمع قول الله الذى ينادى الناس كافة بقوله : « **يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنـــي الحميد ، ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، ومـا ذلك على الله بعزيز** » . فأنتم تحت سلطة الواحد القهار ، الذى بيده الاعمار ، فتوبوا اليه ، واستغفروه ووحدوه ، انــه نعـم المـولى ونعـم النصير .

اللهم أعنا على أداء فرائض ديننا وأهدنا وأعف عنا وأغفر لنا وارحمنا أنـــت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المنافـــق يظهــــر الايمـــان ،
ويخـــفى المخـادعــة والعصيـان (1)

سليمان المدنى

الحمد لله الذى طبع على قلوب الكافرين ، وجازاهم بالعقاب الشديد يوم الدين ، واشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، واشهد أن سيدنـا محمدا عبده ورسوله الذى أرسله ربه لكافة خلقه بشيرا ونذيرا ، صلى الله عليه وعلى اله وصحبه ومـن والاه الى يـوم الـدين ٠

اما بعد ايها المسلمون ، فقد سبق الحديث عن المؤمنين المتقين ، وعـن الكافرين المتجبرين ، الطغاة العتاة الذين طبع اللـه على قلوبهم وسمعهم وابصارهم ، وفى هذا الصدد قال ابن جرير ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه أن الذنوب اذا تتابعت عـلى القلوب اغلقتها ، واذا اغلقتها اتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى ، والطبع ، فـلا يكون للايمان اليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكر فى قوله تعالى : « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم** » نظير الختم والطبع ما تدركه الابصار من الاوعية والظروف التى لا يوصل الى ما فيها الا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك لا يصل الايمان الى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم الا بعد فض خاتمه وحله رباطه عنها ٠

ايها المستمع الكريم ، اذا عرفت الكفر وما قيل فى الكافرين ، فاستمع الى الطائفة الثالثة (من النافقين) الذين وصفهم رب العالمين بقوله : « **ومن الناس من يقول آمنـا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا أنفسهم وما يشعرون** » هؤلاء الناس اي الطائفة المنافقة تظهر الايمان وتبطن الكفـر ،

(1) خطبة الجمعة ليوم 26 جمادى الثانية 1398 هـ 2 يونيو 1978 ٠

لتبالغ فى الخديعة والمكر ، ولتفعل كل أفعال الشر ، لذلك حذر الله رسوله منها ومن شرها ، وفضحها بقوله : « وما هم بمؤمنين » والدافع لذلك أنهم أصبحوا قلة معزولة لم يستطيعوا مجابهة المسلمين فى المدينة المنورة ، لذلك اتخذوا طريقة التكتم والتستر ، ليفعلوا ما بدا لهم من شر ، وليأمنوا على مصالحهم وذراريهم ، وعلى نسائهم وأنفسهم من كل خطر وضرر ·

ولمزيد من التوضيح لحالة هذه الفئة الباغية بين الله تعالى لرسوله بقوله : « **اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله** » أي يقولون ذلك بالسنتهم المخالفة لاعتقادهم بشهادة الله الذى لا يخفى عنه خبث هذه الطائفة الكاذبة الماكرة ففضحها بقوله : « **والله يشهد ان المنافقين لكاذبون** » · لان النفاق هو اظهار الخير ، واسرار الشر ، والمنافق هو من يخالف قوله فعله ، وسره علانيته ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه ، وقد جعلهم الله فى صف الكافرين وأمر نبيه بجهادهم والغلظة عليهم والتنبه لتصرفاتهم بين المسلمين فقال تعالى : « **يا أيها النبىء جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وماواهم جهنم وبئس المصير** » · أي جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان ، وشدد على كلا الفريقين بالقول والفعل انهم من طينة آسنة فاسدة ، فلا تنفع فيهم الموعظة ، ولا تردعهم الزاجرة ، فمصير هؤلاء وأولئك الى أسوا مصير ، « **ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ، نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ، ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ، وما تشاءون الا أن يشاء الله ، أن الله كان عليما حكيما ، يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين اعد لهم عذابا اليما** » · وقد ظهر النفاق بالمدينة المنورة بعد أن هاجر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقويت شوكة المسلمين بها ، وعظم سلطانهم بالتصرف فى شانها ، فعظم الامر على من كانوا قبل ذلك يسيرونها ويتهيأون لرئاستها وسياستها من منافقى الأوس والخزرج ، فلما جاءها الرسول وأسلم أغلب سكانها ، ظهر النفاق فى قلة قليلة ، وتضامنوا مع اليهود المتساكنين بها ، وهم بنو قينقاع حلفاء الخزرج ، وبنو النضير ، وبنو قريظة حلفاء الاوس · ولعل أكبر الناس عداوة للمسلمين هو (عبد الله بن أبى ابن سلول) وهو من قبيلة الخزرج وكان من السادة والقادة ، فلما كان انتصار المسلمين فى واقعة بدر ، أظهر اسلامه واتبعه من اتبعه فى ذلك من شيعته ، من العرب واليهود وتفننوا فى الكتمان والسرية والجهود ، فأعلنوا الايمان وأخفوا الكفر والعصيان · وهؤلاء هم

المنافقون الذين ظنوا بجهلهم وغباوتهم أنهم « يخادعون الله والذين آمنوا » ويفتنونهم فى شتى الميادين فبين الله أن فعلهم هذا وهو اظهار الايمان باللسان ، ونكرانه بالاعتقاد فى الجنان ، مضر بهم وحدهم وخدعوا به أنفسهم فقال تعالى : « **وما يخادعون الا أنفسهم وما يشعرون** » فكان خداعهم ومخادعتهم على كلا الوجهين مضرا بأنفسهم ، وهم لغباوتهم غير شاعرين . وقرىء قوله تعالى : « **وما يخادعون – وما يَخْدَعُونَ** » وكلا القراءتين ترجع الى معنى واحد ، فاذا عرفت أيها السامع حالة هؤلاء المنافقين المذبذبين مجملة فانها ستأتى مفصلة فى الآيات اللاحقة ، ان شاء الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

الخطبة الثانية

الحمد لله الذى أحيا قلوب المؤمنين بالموعظة الحسنة ، وأمات قلوب الفئة المنافقة ، الكاذبة المخادعة ، وأشهد أن لا اله الا الله الواحد القهار ، وأشهد أن سيدنا محمداً النبي المختار ، الذى بشر بالجنة وحذر من النار ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه ومحجته .

أما بعد أيها المسلمون ، فيقول الله فى المنافقين ، أعداء الدين ، الذين وصفهم بما يتفق مع حالهم : « **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون** » هؤلاء جمعوا الى الكفر ، رذائل المكر ، والخديعة والغدر ، انهم يكذبون على المسلمين بأنهم آمنوا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين وهذا هو الخداع والنفاق وهو المرض بعينيه ، والمرض نوع من الشك والريب ، خالط ضمائرهم فأفسدها وزادها بعدا عن طاعة الله ، واتباع رسول الله ، فزادهم الله شكا ونفاقا ، « فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » انهم أظهروا الايمان ، فكانوا بهذا مسلمين وقالوا كلمة التوحيد ، فاستحقوا الامان من المسلمين والمعاملة الطيبة منهم ، وأبطنوا الكفر والعصيان ، وهذا لا يطلع عليه الا الله الرحيم الرحمن ، الملك الديان .

وثبت فى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أكره أن يتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه » ، ومعنى هذا كما يقول المفسرون : أن يقع بسبب ذلك القتل تغيير لكثير من الاعراب عن الدخول فى الاسلام ولا يعلمون حكمة قتل الرسول لهؤلاء المنافقين . اذ لا يعلمون حقيقة كفرهم وخبثهم

يتلونهم ، وهذا الحال منهم يستوجب قتلهم ، والقضاء عليهم ، ولكن حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم فى عدم الاقدام على قتلهم ، معوضة بجهادهم بالقرآن ، الذى فضحهم فى كل ميدان ·

وقال الامام الشافعى انما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الاسلام مع العلم بنفاقهم لان ما يظهرونه يجب ما قبله · اما الامام مالك فقال : انما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لامته أن الحاكم لا يحكم بعلمه ، ووضح القرطبى هذا المعنى بقوله : قال : وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم أن القاضى لا يقتل بعلمه ، وان اختلفوا فى سائر الاحكام ·

وما جاء فى الصحيحين أن رسول الله قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله عز وجل) ومعنى هذا أن من قالها جرت عليه أحكام الاسلام ظاهرا · وانما كان التحذير بالقرآن لهؤلاء اتباع الشيطان ، فقال تعالى : « **لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ، ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا** » ·

أيها المسلمون : ان هؤلاء المنافقين المتسترين قد حاربهم القرآن بأوضح بيان ، وأشار اليهم فاتضحت سماتهم وتبين لحنهم فى قولهم فلم تبق الا فضيحتهم والاشارة بالاصابع اليهم ، فقال تعالى : « **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول** » « **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون** » ذكر بعض المفسرين أسماءهم فقال : وهم المنافقون (عبد الله بن أبى ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير) وذكر الزمخشرى أن عبد الله ابن أبى ، قد شفع فيه سعد بن عبادة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (اعف عنه يا رسول الله واصفح ، فوالله لقد أعطاك الذى أعطاك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يعصبوه بالعصابة فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاكه شرق بذلك) حديث متفق عليه · وقرى (يكذبون) بالتخفيف وبالتشديد للمبالغة من كذب ، كما بولغ فى صدق فقيل صدق ·

اللهم أعنا على الحق ، والصدق ، وقنا من كل منافق متملق ، يا أرحم الراحمين يا رب العالمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين آمين ·

دور المسجد فى بث الوعي والثقافة والحضارة الاسلامية

أحمد حمانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
الجزائر



ردا على كلمة السيد عبد القادر بن يسعد ، التى نشرتها جريدة الشعب فى ركن « بريد القراء » ، فى عددها 4421، الصادر بتاريخ 15 صفر 1398 هـ ، (24 يناير 1978) ، تحت عنوان : « متى نجعل من مساجدنا جامعات » والتى تساءل فيها عن دور المسجد اليوم ، بودنا أن نجيب عن تساؤلات الاخ القارىء بما يلى :

اننا نوافق السيد ابن يسعد فى اعتقاده بان الحضارة المادية التى تسود العالم اليوم جعلت الانسانية تعانى من حيرة فكرية وتذبذب عقيدى ، وفراغ روحى تسبب فى تفكك الاسر وانحلال المجتمعات وانتشار القلق القاتل ، خاصة لدى الشباب • ومجتمعاتنا الاسلامية لم تسلم هى الاخرى من عدوى أمراض الحضارة المادية ، ووقع شبابنا فى كثير من الاحيان ضحيتها ، لافتقارهم الى الحصانة الفكرية والعقيدية ، وتسرعهم لقبول الافكار والاتجاهات الغريبة عن اصالتهم ومقوماتهم •

ولقد كانت المساجد دوما هى الحصن المنيع الذى تحطمت دونه محاولات تفكيك المجتمعات الاسلامية وسلخها من مقوماتها · كما قامت المساجد بدورها كاملا منذ العصر الاسلامى الاول ، وعلى امتداد عصور التاريخ الاسلامى ، وخاصة فى العصر الذهبى ، حيث أسهمت بقسط وافر فى ازدهار الحضارة الاسلامية · بل وأمدت الحضارة الانسانية بأجيال من العلماء فى شتى المجالات ، ساهموا بالكثير فى ازدهار حضارة عالم اليوم ·

ومنذ القديم كانت مساجد الجزائر تخرج كبار العلماء فى علوم الدنيا والدين لهم شهرة عالمية ، أمثال ابنى الامام ، وعبد الرحمن الثعالبى ، والشريف التلمسانى ، والمقرى ، وابن مرزوق الجدو الحفيظ ، والقلصادى ، والوانشريسى ، ممن لا يحصرهم العد · وعلى بعضهم تخرج ابن خلدون ، والشاطبى ·

وفى العصر الحديث أخرجت مساجدنا رجال النهضة العربيه الاسلامية بالجزائر أمثال عبد الحميد بن باديس ، والبشير الابراهيمى ، ومبارك الميلى ، والعربى التبسى ، وحمدان الونيس ، وتلامذهم ، الاحياء منهم والاموات ، وهم كثير ·

ولقد كان الفضل للمساجد ، أثناء عهد الاحتلال البغيض ، فى المحافظة على مقوماتنا وقيم شعبنا المتمثلة خاصة فى الاسلام والعربية والايمان بالارض الجزائرية وطنا اسلاميا ، وكانت المساجد تكاد تكون الاماكن الوحيدة لسماع الدروس والقائها وخصوصا قبل عهد الاستقلال ـ ولكن الدراسة اليوم تطورت وأصبحت المساجد لا تقوم بواجبها لعدم صلاحيتها صحيا ، لايواء العدد الغفير من الطلاب ، وعدم ملاءمة الدراسة لاقسام كثيرة فى أماكن قريبة بعضها من بعض ، لهذا أسست المعاهد لتعويضها وبقيت المساجد وملحقاتها لتعليم القرآن · للكبار والصغار ، والقاء دروس الفقه والتفسير والحديث ، والوعظ والارشاد ، وهذه هى مهمتها الاساسية ·

فمنذ استرجاع الاستقلال ، بدأ السعى حثيثا لكى يستعيد المسجد رسالته الحقيقية كمؤسسة روحية وتربوية · ودور المساجد فى بلادنا اليوم ، ليس ـ كما يقول

السيد عبد القادر بن يسعد ـ مقصورا على أداء الصلوات الخمس فحسب ، بل انها ، بالاضافة الى اقامة الصلاة فيها وهى مهمتها الاساسية ـ تقوم بتعليم القرآن للصبيان فى أوقات منتظمة ، حسب ما تسمح به أوقات فراغهم ، وحسب درجة اقبالهم واقتناع أوليائهم بفائدة ارسالهم الى المسجد لحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ، فقد ثبت ، للاسف الشديد ، أن بعضا من الاولياء لا يبعثون بأبنائهم الى المسجدلتعلم القرآن الا فى فترة العطل المدرسية ، بهدف واحد لدى بعضهم هو ابعادهم عن المنزل للاستراحة منهم ، وهذا رغم الدعوات الملحة التى ما انفكت يوجهها السادة أئمة المساجد الى سكان أحيائهم ·

واذا كان بعض المواطنين غير مستعدين للاستجابة الى هذه النداءات المشكورة · فما ذنب المسجد والامام اذا لم تجد دعوته آذانا صاغية ؟ على أن هذا ، لحسن الحظ ، ليس هو وضع كل المساجد · بل ان كثيرا منها فى جهات مختلفة من البلاد تشهد فيها عملية تحفيظ القرآن الكريم اقبالا كبيرا ، والتعليم القرآنى فيها منتظم وفق جدول يمكن لاى واحد الاطلاع عليه · وتتخرج من مساجدنا سنويا أفواج من صغار حفظة القرآن الكريم يشاركون خلال شهر رمضان من كل عام فى مسابقات جهوية ، وفى المسابقة الوطنية التى تنظم فى العاصمة ، وتوزع الجوائز عى الفائزين فيها ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان من كل سنة وبانتظام ، بمناسبة الاحتفال بذكرى نزول القرآن الكريم، بحضور الجماهير والسلك الدبلوماسى الاسلامى فى الجامع الكبير بالعاصمة أو جامع الابيار تحت اشراف السيد رئيس الجمهورية وبعض الاعضاء من مجلسى الثورة والحكومة ، وكم من مرة رأينا فيها صغار الحفظة بنين وبنات من هم فى العاشرة من عمرهم أو دونها ·

كما يلعب المسجد دورا هاما فى اعطاء دروس للكبار فى اطار مكافحة الامية ببلادنا، واذا كانت هذه العملية محدودة فى بعض الجهات ، نظرا الى أوقات العمال المتفاوتة ، التى لا تسمح للجميع بحضور هذه الدروس · فانها أعطت فى جهات كثيرة نتائج مشجعة · والذين تابعوا هذه الدروس بانتظام ، استطاعوا أن يصلوا بفضلها الى مستوى الاهلية ، بل ان بعضهم نجحوا فى الحصول على هذه الشهادة ·

وبالاضافة الى ما سبق ذكره ، فان دروس الفقه والتفسير تعطى فى المساجد بعد صلاة المغرب من كل يوم ، تشهد هذه الدروس نجاحا كبيرا واقبالا متزايدا فى كثير من الجهات ·

واذا كان صاحب المقال قد لاحظ خلو بعض المساجد من هذا النشاط ، فان ذلك قد يعود الى عزوف بعض المواطنين عن حضور هذه الدروس فى هذا الحى أو ذاك ، كما سبقت الاشارة اليه آنفا ، وللاسباب السالفة الذكر · ولعجز الائمة فعلا فى حالات أخرى وهذا وضع مؤقت لا ننكره بل نأسف له ونحن بصدد معالجته ·

وليعلم الاخ عبد القادر بن يسعد أن هذه النشاطات المسجدية المتمثلة فى تحفيظ القرآن الكريم ، ودروس محو الامية ، والدروس المسجدية ، تعتبر من صميم أعمال الائمة ، التى وظفوا من أجل القيام بهذا بالاضافة الى امامة الناس فى الصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة ، وقيامهم بالوعظ والارشاد والافتاء ·

وفى الختام ، أملنا أن يكون السيد ابن يسعد قد عرف الدور الحقيقى الذى يلعبه المسجد اليوم فى بلادنا ، وأن يعلم أن هناك مراقبة صارمة من طرف الوزارة حتى يقوم المسجد بالمهام التى ينتظرها الجميع منه ، بقدر الامكان ·

وهذا لا يعنى أننا قانعون بهذا العمل ، فرسالة المسجد أكبر وأجل ، وننتظر أن تسترجع مساجدنا دورها الكامل تدريجيا ، وتعود كما كانت فى عصورنا الذهبية مراكز اشعاع روحى وعلمى ، **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ، واننا لنرحب بكم للمساهمة فى هذا العمل ان كان لكم استعداد وبكل من له حسن استعداد ·

توضيـــح حـــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائـدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتـذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـــات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مــن هــذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطـــر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاســـلامى .

تأملات حول مستقبل الحضارة العربية والاسلامية



الاستاذ ابراهيم غافة
سفير الجزائر فى اليابان

سيداتى سادتى :

أتى الاسلام ثورة فى الاخلاق وفى التنظيم الجماعي وفى تجنيد وصهر القبائل العربية للقيام بالدعوة المحمدية ونشرها فى كل آفاق المعمورة ٠

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، التثقيف فى الدين ، المساواة والحرية ، لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وكل من آمن بالاسلام وانتظم تحت لوائه أصبح قوة ضاربة معبأة يبادر الى الاستشهاد حتى يظفر بالفوز المبين ويكون فى عداد الخالدين بالعقيدة وبالجهاد ، ظفر الاسلام بحضارات ثلاث ، حضارة الفرس العجم وحضارة الرومان وحضارة الفراعنة ، كما جعل الاسلام من القاعدة العربية الارضية المتينة التى رد بها على بنى اسرائيل بعزم وتصميم وبنى عليها صرح الحضارة العربية الشامخ التى عاركت الحياة والوجود وبقيت لحد الآن فى عداد حضارات العالم الرئيسية بفضل الفتوحات الاسلامية ، وبفضل تجنيد العرب وجهادهم فى سبيل الله، صارت اللغة العربية لغة الكتاب المبين ، المعبر القيم للحضارات الغابرة ، عرفت بتاريخ الهند القديم ، وبتاريخ الصين ، كما سطرت المعالم الاولى لتاريخ الاجتماع فى المغرب ، وتاريخ العلوم فى المشرق ويكفى أن نستشهد هنا بابن خلدون و بالبيرونى ٠

لم يعق اللغة العربية التعبير عن فلسفة اليونان والفرس والهند والرومان ، كما لم يعقها أن ترسى قواعد الجبر والكيمياء والفيزياء والرياضيات ، وما تبقى من كتب البيرونى يغنى عن المناقشة والاستشهاد بمزايا اللغة العربية وقدرتها على استيعاب عيون الحضارات

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 10/19 اوت 1970 م٠

السالفة ، والتعريف باختراعات وابتكارات قادة الفكر فى الماضى .

اذن بالعقيدة وبالجهاد وبتنظيم القبائل العربية ، تنظيم البدو الرحل ، وبالفتوحات لنشر الدين الحنيف ، وبث دعوة محمد ، أصبح للعرب والاسلام شأن عظيم ، وتاريخ حافل ، كبير ، طبع به الانسانية جمعاء قرونا طوالا . وبنى الغرب نهضته على الحضارة العربية ، وكانت اللغة العربية هى اللغة السائدة ، لغة العارفين الباحثين فى الكنيسة فى اسبانيا وفرنسا وايطاليا ، ومن ينكب على دراسة النهضة الاوروبية فى القرون الوسطى يرى تأثير فسلفة ابن رشد وابن طفيل وابن سينا والمعرى ، وابى حيان التوحيدى ، أفكار مترجمة برمتها الى اللاتينية،أدت الى خلق مدارس الفكر الفلسفى الاوروبى وحتى الفكر العلمى كالطب مثلا . والدكتور عبد الحليم منتصر فى عدد اغسطس 1970 م لمجلة العربى فى مقال عنوانه تعريب العلم يطالب بمتابعة كل ما ينشر من الكتب والمطبوعات والدوريات فى اللغات المختلفة من انجليزية وفرنسية والمانية وروسية ، ثم يقول : لعلنا بذلك نعيد عصر المأمون الذى جمع جمهرة العلماء وأنفق على الترجمة بسخاء حتى تم فى عهده نقل التراث الاغريقى الى اللغة العربية واعتبر بذلك واضع أساس النهضة العلمية فى العلم الاسلامى الزاهر وحافظ التراث الاغريقى من الضياع . تلك النهضة التى قدمت لاوروبا زاد نهضتها العلمى ، فقد ظلت مؤلفات العلماء العرب من أمثال الكندى وابن الهيثم والخوارزمى والخازن وابن سينا والبتانى والبيرونى والرازى وابن النفيس وغيرهم ظلت المراجع المتعددة فى جامعات أوروبا حتى أواخر القرن 17 والقرن 18 فقد نقلت الكتب العربية الى اللغات الاجنبية وطبعت عشرات المرات لتكون بين أيدى الدارسين فى معاهد أوروبا طيلة

تذكيرنا هذا الموجز لأسباب نشر الحضارة العربية الاسلامية منذ الدعوة المحمدية من القرن السابع الى القرن الخامس عشر بعد المسيح أى بعد انهيار العرب فى الاندلس فى (1492) انما لنبين ، ان الحضارة كائن حى ينمو ويترعرع مع وجود أهلها وأصحابها وان الحضارة لا تنفصم عن وجود الامم فى جميع مظاهر حياتها فى آمالها

ونشاطاتها فى انتصارها وفى هزيمتها ، فى بقائها وفى فنائها.

اننا فى يوم من الايام اخذنا الكلمة باسم جبهة التحرير الوطنى الجزائرية وربطنا كفاح الجزائر بالدفاع عن عروبتها واسلامها وكان ذلك فى احدى مؤتمرات أدباء العرب وامام الدكتور طه حسين ، فما كان منه الا ان رفض أن يربط الادب بالسياسة ، ومنذ ذلك الحين ونحن نفكر فى هذا الموقف **ولا زلنا نصر واكثر من اى وقت مضى وخاصة بعد استقلال بلدنا العزيز بربط الادب بالسياسة** اى بجعل معركتنا الحضارية فى اطار اختياراتنا الاشتراكية لانه لايمكن لحضارتنا اليوم أن تنهج منهج التجربة الفردية أن تسلك سبيل المجهود الفردى ان تحذو طريق من يسرد حياته عبر الايام ويعبر عنها فىأسلوبه الخاص ليصبح نموذجا لمن يريد أن يصل الى القمة بمفرده منعزلا عن أحداث أمة برمتها ، معتكفا فى برجه العاجى ينظر الى أمور الادب نظرة التقنى المتخصص لينقد وينتقد ليبقى على هامش المصير .

ومدرسة احياء اللغة العربية واحياء التراث الاسلامى تنسى ان وجودنا اليوم يقتضى مجابهة صراعات أخرى متفاعلة مع الاحداث فى عالم تغير تماما عما كانت عليه بلادنا حتى فى بداية القرن العشرين.

طريقة محمد عبده وقبله جمال الدين الافغانى المعتمدة على التفسير الحديث ـ مثلا ـ للقرآن والهاب الشعور واذكاء الضمائر للنهضة غير كافية لانها تعتمد على التأويل لجعل تعاليم الدين تطابق مبتغيات العصر دون ان يحدث تغيير يذكر فى المجتمع الذى عاش فيه عبده وجمال الدين الافغانى ، وهذا ايضا لجهل مقتضيات الجغرافية السياسية العصرية .

فالاصلاح فى الجزائر ـ مثلا ـ بخصوص الدين أتى على أسس من الواقع وسياسة الدفاع عن النفس وتنازع البقاء ولم يأت فقط لزيادة ألوان فى الفكر باعثها الخيال والالمعية .

فمثلا ، عند ما أوجز **ابن باديس** فى مثلث واحد الحفاظ عن وجودنا بقوله : **«الاسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا»** أعطانا السلاح الفكرى لنقاتل به دفاعا عن بقائنا فوق هذه الارض بذاتيتنا وشخصيتنا . وعند ما نظم الشيخ البشير الابراهيمى تعليم شعبنا باللغة العربية عن طريق المساجد الحرة والمعلمين

الاحرار معبئين مثل المجاهدين بروح الايمان والحرية فاننا نجـد ان الشعب الجزائرى امتحن فى معتقده وفى مقومات وجـوده وخرج منتصرا بعد ما عارك الحياة فى كل مظاهرها السيئة وطبق بواقعية ملموسة ما أراد له رواد فكره ، فكان المفـكر فى محك الاحـداث لا مجرد استنتاج أو تاويل لشرح الشرح أو العنعنة المحفـوظة ، أعطينا مثل الجزائر وهى تؤدى معركة التحرير مع معركة المعتقـد والحضارة التى تنتسب اليها كدليل قاطع لضرورة ربط الحضـارة بوجود الشعب فى جميع مراحل الحياة وجميع النشاطات الثقافيـة والعلميـة والدفـاعية .

تجربتنا فى الجزائر تزداد قيمة وبرهانا عند ما نتأمل فى أحداث الشرق الاوسط الراهنة وتأثـيرها على مستقبل الحضـارة العـربية الاسـلامية .

فبعد 5 حزيران 1967 م أصبح المفكرون والساسة فى الشـرق الاوسط يتساءلون عن مصيرهم ومصير الحضارة العربية الاسلامية عن وجودهم وعن أراضيهم ، فربطوا بين سرعة ضربة العدو وعمق ذهولهم ، وصاروا ينتقدون المستوى العلمى والثقـافى السائد فى بلادهم ، وسخطوا على عجزهم وجهلهم فى ميادين التقنية الحديثـة ، وراحوا يعـزون الهزيمة الى عـدم استعـدادهم للحرب الالكترونيـة الحديثة ، وطغت هذه النغمة فى جميع المحافل والاوساط فىالشرق الاوسط ولم نعد نسمع الا هذه الجملة : **خسرنا الحرب لاننـا لم ندخل عصر الذرة ولم نعـرف حضارة الآلـة .**

وقرأنا فى احدى المجلات العربية مقالا لأحد الأساتذة فى جامعة مغربية ، يعزو الهزيمة الى حضارة الكلام والفخر والتبجح والعنتريات الفارغة التى لم تتغير من عهد المعلقات فى وقت عنترة بن شـداد وعمر بن كلثـوم .

طبعا ، اننا لا نشاطر رأى هذا الاستاذ لعدم اعتباره أسبـاب ودوافع الصراع فى الشرق الاوسط وظروف تطوره ، وتاريخ أحداثه وهى المنطقة الحيوية بالنسبة للمعسكرين الكبيرين الغربى والشرقى كممر استراتيجى وكمخزن عظيم للطاقة والمحروقات .

نعم منذ 5 حزيـران ـ جوان ـ 1967 م ، والشـرق الاوسـط

فى أزمة فكرية حادة ، فى أزمة مصير ، أزمة حضارة ووجـود .

لقد سمعنا احدى الشخصيات الشرقية الكبـيرة المتضلعـة فى علوم الدين الاسلامى ، وهى تتساءل عن مصير القومية العربية بعد جوان 1967 م .

هذه الشخصية كانت تدلل بأن مصر هى التى ورثت بفضـل الازهر الدفاع عن العروبة والاسلام ، وهى التى صمدت قرونا طوالا فى سبيل التثقيف الدينى وتبينت الدعوة المحمدية العربية الاسلامية وبثها ، وان مصر تخلت عن الفرعونية ، وأصبحت مهد الحضـارة العربية الاسلامية ، وحيت بذلك وتابعت رسالتها الحضارية ، ولم يك مصيرها مصير حضارة الفرس والرومان .

على هذا الاساس خاطبت هذه الشخصية الولايات المتحـدة الامريكية متسائلة ، كيف يصح لهذه الدولة العظمى وهى التى أنقذت العالم من كارثة النازية أثناء الحرب العالمية الثانية ، أن تسـاند نازية أخرى وهى الصهيونية ، وتريد أن تمكنها من أرض العـرب وتساعد على اذلالهم والحط من شأنهم ، وراحت الشخصية تحـذر الولايات المتحدة من الاستمرار فى الغلطات مثل تلك التى مكـنت الشيوعية من الاستتباب فى الاتحاد السوفياتى (هكذا) ، وان تمادت الولايات المتحدة الامريكية فى غيها ، فمن يمنع الشيوعية من بـلاد العروبة والاسلام ؟ .

هذا الحديث قديم فعلى عهد المستشرق ماسينيون كانت الفكرة فى اتحاد المسيحية والاسلام ضد الشيوعية فى الصراع الفكرى .

اليوم اننا نرى التعايش السلمى يتجاوز هذه الافكار ويغلب عليها المصالح الاقتصادية والاستراتيجية .

أوردنا هذا الحديث للتدليل على أزمة الحضارة السائدة اليـوم فى الشرق الاوسط .مفكرون يربطون الآن بين سيادة بلادهم واهمية الدور الذى تلعبه فى الميادين الدينية والثقـافية لتبصير الآخـرين بالخطر الذى يرونه والذى يمكن أن يمسهم جميعـا .

وهؤلاء المفكرون قدامى فى تفكيرهم وفى أسلوبهم ، عتـادهم قديم ووسائلهم بالية والتعبـير عنها اظهار لأزمتهـم .

عند ما انتصرت الجزائر لشخصيتها ولمعتقداتها وضحت بمليون ونصف مليون شهيد وعند ما خاضت الجزائر معركة الوجود المريرة لم تتساءل هل العدو المقابل سوف يسحقها بما لديه من عتاد الكتروني وذرى اليوم أو غدا ، فكانت ارادتها ان توجد أولا وان توجد بما هو معروف عنها من عروبة واسلام وبما هي تنتسب اليه من أمة عربيـة وحضارة عربية اســلامية ٠

واليوم والجزائر تقوم بثوراتها الثلاث الثـورة الصنـاعية والثورة الزراعية والثورة الثقافية لا بد وان تجعل هذه الثورات فى اطار من العصرية والتقنية بمكان ولا بد أن تتساءل عن مصير الحضارة التى تنتسب اليها ولا بد أن تساهم فى تشييدها وفى احيائها وتقويم اعوجـاجـاتهـا ٠

لقد انتهى دور التقليد،فللجزائر تجارب لم يخضها العالم العربى بعد ، للجزائر انضباط وسلوك ثورى لا يعرفه العالم العربى بعد ، للجزائر صيت عالمى فى التحرر والتغيير والتجديد والاندفاع ، على مثقفيها ان يسجلوا أبعاد ثورتها الشعبية كمساهمة فى حضارة العرب فى القرن العشرين ، التجربة الجزائرية تجربة شعبية اشتـراكيـة ليست تجربة فردية أو نجاح فرد تلمس طريقه ثم ضرب بنفسه مثلا كـآلهـة ٠

فمثلما نجحت الجزائر فى اثبات كيانها الوطنى لا بد ان تـأتى تجربتها الثقافية الحضارية مكرسة لحياة ووجود ونجاحات الشعب الجزائرى ، وهذه النجاحات نجاحات الإنسانية المعذبة التى اهتدت الى سبيل السعادة والعمل والخلق والابتكار والتى ظفرت بقـادة تسكنهم همم الرجال الذين دخلوا التاريخ بالاعمال لا بالاقوال ٠

ثم مساهمة الجزائر فى بناء صرح الحضارة العربية الجـديد العصرى ستزداد قوة ومكانة بمساهمة بلاد المغرب العربى ، وليس فيها فصل او تباين بين الشرق والغرب ، وكذلك ليس هناك نية فى الاحتكار أو الانفراد بأية زعامة ثقافية ، لاننا نريد قبل كل شىء ان نكون نحن ثم نغتنى بتجارب الآخرين ثم نساهم بما عاركناه وبلوناه فى الحيـاة ٠

فالاطارات التى نثقفها لا نأمل أن تكون بضاعة فى السوق نؤجرها

ونقضى بها بعض المآرب أو لنتخلص من مشاكلها ، وانما نـــريدها أن تكون خميرة الصعود وبذرة الرقى والتغيير والتطور فى تحقيـق الاهداف الاشتراكية لا النجاحات الفردية التى تجعلها نخبة منحلـة منفصلة عن واقــع الشعب تعيش على هامـش المصير والاختـيارات الوطنيـــة ٠

ثورة الجزائر التى لم يعطها الكتاب العرب حقها من كتابة ومن تعريف والتى تغنى بها بعض الشعراء العرب كملحمة وكمفخرة على النمط والاسلوب العربى القديم ، أمامها مستقبل فكرى عظيم ، فـلا بد أن يسكن الطموح ابناءها للتعريف بها ولادخال ابعادهــا فـى الحضارة العربية التى لا تزال تتسم بالفردية والتى تتســاءل فى الشرق عن مصيرها بعد جوان والتى هى اليوم فى اعتى امتحان تكون او لا تكـــون ٠

فالحضارة مجموعة من الاعمال والابتكارات والنجاحات المادية والروحية ، لقد اتى دورنا لقد حانت ساعتنا ونحن نبنى ثـوراتنـا الثلاث لنخلق أدبا من حياتنا وعلوما نابعة من تجاربنا وأخلاقا سامية برهن على جديتها شهداؤنا فى أروع جهاد عرفه تاريخ العرب والاسلام

الثورة الثقافية فى الجزائر لا بد أن تكون فى مستوى ثـورتهـا السياسية العارمة الثقافة والعلم للجميع والمعرفة والعمل للجميـع هكذا نعطى للمشرق ولغير المشرق مثل انتفاضة الشعوب فى القرن العشرين ، وهكذا نعطى بعدا جديدا فى حضارة القرن العشرين ٠

لنعلن من هذه المنصة من صخرة قسنطينة ان عهـد التبعيــة الثقافية قد انتهى ، وان عهد الفكر والاختراع والابتكار والتجارب قد بدأ فى الجزائر وان الشرح وشرح الشرح قد ذهب الى غير رجعـة وان مركبات العجز والفشل قد فات أوانها وان التقليد لن يعــود غاية لنا ، ان مصيرنا بأيدينا واننا لا نتســاءل عما سنعمل وعمـن سنكـــون ٠

لقد سبقتنا ثورة مسلحة واننا ساعون فى ثورات ثلاث واننا غير مذبذبين فى الرأى ومراهقين أو عاطفيين او خياليين ، اننا آخـــذون بأسباب الثقافة والحضارة وبعد ان تعرفنا على أوضاع الشرق الاوسط الشىء الذى كنا محرومين منه على عهد الاستعمار وبعد أن مرت بنـــا

التجارب والمحن وعلمتنا الحياة اعتبار مسيرة شعبنا الداخلية والتركيز على تغيير أوضاعه وتثقيفه والانكباب على مصالحه واعتبار واقعه لصهر ثقافته والاخذ بيده كليا فى جميع الميادين لا يمكننا فى الفترة الراهنة الا أن نعتمد على أنفسنا ولأمد طويل لخلق الثقافة الوطنية التى تجعلنا نقول ان الثورة الثقافية الجزائرية هى نتاج أدمغة الجزائريين الذين ساهموا، فى التراث الانسانى ولقد أتت ثورتهم المسلحة ومثل ثورة الاسلام الاولى التى أعطت غذاء للاجيال طيلة القرون السابقة .

فبعد أن فسح لنا شهداؤنا مجال الاستقلال والسيادة واسعا .

فتكوين الادمغة الجزائرية لن يكفيه التغذية بالوان حضارة العرب الماضية أو التشبع بمعارف الغرب كفرنسا وغيرها فلا بد أن يجتاز بناحب المعرفة الى اكتساب ما يسميه البعض اليوم حضارة الصعود الى الكواكب حضارة سر الذرة والالكترون ، فعهد جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وطه حسين والعقاد قد فات ، **ان استقلال الجزائر وازمة الحضارة العربية بعد جوان 1967 يوجبان علينا ان نغير كليا افكارنا وان نبنى على اسس جديدة وجدية حضارة المستقبل فى بلدنا التى هى لا فردية ولا تقليدية ولا كلامية وانما حسب الواقع والملموس والنقد والبحث العلمى والفكرى المتطور ابدا.**

اننا ندعو جميع المثقفين فى بلدنا الحبيب الى مراجعة الافكار والى اعلان بدء العهد الجديد حتى لا يكون بناء صرح حضارتنا منقوصا معتمدا على التقليد البالى وعلى تجارب الآخرين الغير الناجحة أو تحقيق خرافات من مات وفات من الاجداد الغابرين .

فكما نرى ليست معركة الحضارة اليوم فى استعادة اللغة وحفظ التراث الماضى فقط وانما بناء المستقبل باسم المستقبل وما يستلزم ذلك من تغيير فكرى واجتهاد ونقد وتمحيص .

فثورتنا الثقافية ليست أهدافها قريبة فقط وانما هى بعيدة حتى لا نفشل فى معركة النفوس معركة الادمغة معركة الايمان والاعتزاز بالوجود والتى يعانى منها اليوم الشرق العربى

ومن يتعدى لتاريخ الحضارة فى بلدنا يرى انه تعاقبت علينا حضارات متتالية من الفينيقيين الى الرومان الى الوندال الى العرب الى

الاتراك ثم الى الفرنسيين واننا لم نتأثر بها فحسب بل أثر فيها بعض من اعلامنا على الاقل كحضارات الرومان والعرب والفرنسيين فـالى اليوم يعتبر القديس اوجستان أحد آباء الكنيسة الكاثوليكية وكتابه «بيت الله» احدى المراجع للمتدينين المسيحيين ، اما الحضـارة العربية فقد أسهم فيها علماؤنا ومن يريد استقصـاء البحث عليه أن يراجع كتاب «عنوان الدراية فى تاريخ علماء بجاية» و «البستان فى تاريخ علماء تلمسان» ثم كتاب «نفح الطيب» للمقرى و «مقدمة ابـن خلدون» التى كتبها صاحبها بالقرب من مدينة تاهرت الجزائرية ·

ثم هنـاك شخصيات فـذة لعبت دورا تاريخيـا عظيما مثـل ابن تومـرت ·

اما الحضارة الفرنسية فالى حد الآن يمكننا أن نعد بعضا مـن الكتاب الجزائريين الذين تأثروا بالثقافة الفرنسية وتشبعوا بها ·

وهذه التأثيرات فردية أتت عن سلوك وطموح فردى لا يمكننـا أن ننعتها بانها الثقافة الوطنية أو بالمثل الذى يجب أن يحتذى بـه وانما هى للتدليل على انعدام الثقافة الجماعية والمجهود الثقـافى الجماعى المعبر عن مسيرة أمة برمتها وهى تنهض بمهام الخروج من التخلف والفقـر والجهـل ·

ان **الدولة الجزائرية** التى تعطى اليوم التعليم الابتدائى والثانوى والعالى مجانا لمليونين من ابنائنا والتى تشد العزم على اعطاء السيادة المطلقة للغتنا العربية بعد حرمان شعبنا منها طيلة قرن ونيف كونت **لجنة وطنية لاصلاح التعليم ولجانا فرعية فى الولايات** حتى تضمـن لبلدنا تعليما ناجعا وثقافة صالحة وحضارة حسية مبنية على الملموس والواقـع والمعـرفة الصحيحـة ·

حينئذ لا يضمن النجاح للتجربة الجزائرية الا اذا اجتـازت الدائرة العربية العتيقة وتخطت البحث عن «**كان العرب وكان الاسلام**» وأصبحت تترجم ذاتيتها وعبقريتها بالمنطوق الحديث وأسس عالمية العلوم العصرية بالبحث والتجـربة والتمحيـص والتبـادل العلمى والتجارب العالمية فى الاختراعات والابتكارات ، ولا بد من تعلـم اللغـات الرئيسيـة العـالمية ·

لتكون لنا المدخل للعلوم التى لا بد من كسبها لنضمن الوجود والبقاء فى عالم القرن العشرين والواحد والعشرين ٠

فروسيا تأخذ عن أمريكا ، وأمريكا تأخذ عن أوروبا ، والصين تأخذ عن روسيا وأمريكا ، ونحن يجب أن لا نبقى متأثرين بالكلاميات والادبيات فقط ، أو نبقى محدودين عند عاصمة معينة ٠

فتخطيطنا الثقافى ينبغى أن يقيس انتاجنا الفكرى ، لا بروائع ماضينا فحسب ، بل بما يمكن أن يؤثر فى الانسانية جمعاء ، ويجعلها من روائع الفكر العالمى الحديث ٠

هكذا نرى مستقبل حضارتنا العربية الاسلامية مستقبلا يمر اجباريا بتفوقنا الثقافى والعلمى والتقنى يتغذى من سياستنا الاشتراكية المضطهدة ، تستنير به للخروج من الظلمات التى تتخبط فيها ٠ حينذاك تكتب لنا الحياة ، ونكون صالحين ونرث الارض ، قال تعالى : «**ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**» ، وقال « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات** » ٠

عند ما نطالب بتجاوز الاطار العربى العتيق والدخول الى عصر التقدم التكنولوجى دون تردد لان التجدد أصبح ضرورة حتمية ملحة وحياتية ، لا بد لنا من أن نفهم رموز العالم الجديد وان نساير ركب الانسانية المتحضرة ، اننا ثرنا ثورة مسلحة لندك حصن التخلف ولنتقدم أبدا ، والا فما معنى التضحيات ان عدنا الى الجمود والماضى البالى ٠

لقد رأى أحد علماء الاجتماع فى الغرب ان الشرق فى سعيه اليوم وراء حضارة الآلة أصبح شرقا ثان ، ليس ذلك الشرق الذى تعلم عنه الصليبيون والذى نقل حضارات العجم واليونان والرومان الى أوروبا فى القرون الوسطى ، وحتى ذلك الشرق الذى تأثر به الكاتب الالمانى جوته أو الذى تعرفت عليه أوروبا وكتابها الباحثون عن الخيال وعن النور بعد حملة نابليون على مصر ٠

شرق الاستلهام ، شرق الخيال ، شرق الاخلاق والادبيات ، هذا تغير وأصبح هو نفسه يبحث عن الآلة وهى عبارة فى القواميس معناها السراب ، ولكنها حقيقة وقوة الدول العظمى التى توزن بثقل اختراعاتها وآلاتها على أمن وسلامة العالم ٠

اننا اليوم فى الشرق العربى وفى المغرب العربى ، نبحث سويا تقريبا فى نفس المستوى عن حضارة الآل ، والمعلم هو المجتمعات التى بلغت شوطا بعيدا فى التكنولوجيا فى أوروبا وفى أمريكا وفى آسيا ·

ان التزامنا بالتكنولوجيا شرط أساسى للبقاء · ان الاستعمار بالتقدم التكنولوجى يتوسع على حساب المجتمعات المتخلفة فى بلاد العالم الثالث ، ولا بد أن نتسلح بسلاح التكنولوجيا ، للحد من الظلم ، والنهب الاستعمارى الشره ، وهذا هو السر فى اتباع سياسة الاكتفاء الذاتى ·

فالحضارة الصناعية تمكننا من نفوذ مادى عظيم يسخر لنا امكانيات طبيعية ومدهشة ويصون استقلالنا وسيادتنا التى هى شرط أساسى لنمو شخصيتنا وحضارتنا ·

ولقد سبقنا ابن رشد وابو حيان التوحيدى الى فلسفة الاستلهام الطبيعى **وكان ابن رشد يرى أن الطبيعة قاعدة يتدرج منها العقل الجماعى ·**

وهذا دليل على تفتح التراث العربى نحو الطبيعيات ·

نعم شرق عربى ومغرب عربى فى نفس التساؤلات ونفس التأملات نحو الوجود والبقاء والتجدد والاصالة كل يأسف على اننا لم نكن نساهم بشىء فى عهد البخار وعهد الكهرباء واليوم فى عهد الذرة والالكترون وكل يعزو مصابه الى التخلف التقنى والفنى وكل يبحث عن الطريق المثلى فى الاخذ بتلك الحضارة التى يطالب بها أحد فلاسفة الاجتماع الغربيين بان تمنح للفرد والجماعات امكانيات التحول المستمر بين الاشياء والسمات بين الافعال والكليات بين الطاقات والرموز ·

اننا لا نريد التضييق على انفسنا وحشرنا فى دائرة مغلقة ، فالشرق العربى منذ حملة نابليون وهو يوفد البعثات الى اوروبا وأمريكا ليغترف من العلوم الحديثة ، فالشرق نفسه يسعى لاقامة صناعات ولدخول عصر الذرة والالكترون ، فالشرق يترجم ويتعلم ويتفتح ، لقد لاحظنا هذه السنة ظاهرة معبرة فى الشرق العربى ما

من مجلة فى العالم العربى الا وكتبت عن حياة لينين واشادت بمواقف الرجل بمناسبة مرور مائة عام على ميـلاده ٠

الصراعات الفكرية والاتجاهات السياسية المختلفة تغير من فكر الشرق وتهيء لعهد جديد فى خضم الصراع الدولى المتهافت عـلى خـيرات البلاد العربيـــة ٠

هذه الظواهر بعثت أحد الكتاب الاجانب الى اعتبار الشرق انـه أصبح شكلا ثان أى ان الشرق الذى كان يلهم أصبح يستلهم ٠

ودعوتنا الى بناء ثقافة وطنية انما هى استيفاء لشرط من شروط وجودنا الحر المستقل الذى يحتفظ بشخصيته مع الاقتران بالتقدم التكنولوجى ٠

نعم نحن هنا فى الجزائر نبنى وجودنا دون أن تاخذنا الحـــيرة ودون تردد ، والحافز العظيم فى هذا هم الشهداء الذين بنوا استقلالنا ودكوا العقبات التى كانت تعترض طريق شعبنا دون حيرة ودون تردد لاننا انقذنا من مرض وضعف الخاملـين اليائسـين المتسائلـين فى أمرهم الذين لم يستطيعوا دك حصون واسوار الظلم والاستبـــداد ، اننا لاحظنا فى الشرق العربى قلة الكتاب الذين يتناولون الثـــورة الجزائرية كمجهود انسانى جديد جبار وكطريقة للانقاذ والنهـــوض من العـــدم ٠

اننا مثلا قرانا **فى مجلة العربى الشهيرة مقالا بقلم رئيس تحريرها الدكتور احمد زكى بعد ازمة حزيران بمناسبة مرور 3 سنوات عـلى الهزيمة تناول الكاتب عددا من الثورات مركزا على الصمود** وذكـــر ثورة الفيتنام التى نجلها ونقدرها ، وذكر صمود انجلترا أمام هتلـر وعظمة تشرشل **ولم يذكر كلمة واحدة بخصوص الثـورة العربيـة فى الجزائر التى حققت اهــدافا جـلى ٠**

كل التراب الجزائرى تحرر لا قواعد ولا سيطرة سياسيـة أو مالية لاجنبى وشعب برمته ينهض دون قيود وعوائق معبأ كله للصالح العام ، **لماذا هذا التجاهل لماذا هذا التناسى والعـــالم الثالث كلـه يذكر باحترام وتقدير معجزات الثـــورة الجزائـرية** التى انتصـرت بالسلاح والتى هى فى طريقها الى تقييظ جيش من المفكرين والمثقفين

ومن الفنيين والعلماء لتحقيق نصر مبين في ميادين الاقتصاد والاجتماع والصناعة عددا وعدة لبناء الحضارة فى بلدنا بانفسنا ولتشع بدورها على غيرنا بمشاهمتنا فى التراث الانسانى العـــالمى ·

خطواتنا مليئة بالثقـة فى نفوسنا مثـل تلك الثقة التى مكنت المجاهدين عندنا من احراز الغلبة فى ميادين الشرف والقتال ·

اننا ضربنا أمثلة بالكفاح الجزائرى وبالصراع فى الشـــــرق الاوسط والبحث عن المصير مرتبط بالتصدى الى مشاكل حضارتنا العربية الاسلامية وأكدنا على ضرورة الدخول بها الى الحضارة الصناعية والتكنولوجيا والاسلحة اليوم فى متناولنا الكتاب والسنما والتلفزيون والمصنع والجامعات والمعاهد الثقافية والتكنلوجية ، علينا فقط أن نخطط اختياراتنا وان نخوض التحديات بايمان فى النصر مع اليقين وبآمال الكادحين الذين يسعون دوما فى سبيل حياة أفضل ومستقبل باســم مشـــرق ·

فجيلنا لا بد أن يعيش مع زمانه وان يصارع مشاكله الحاضرة والمقبلة ، لا فائدة فى البكاء على الماضى ، لقد عادت لنا الحـــريـة وعادت لنا السيادة ورقص شعبنا لها وفـرح بها ولا بد الآن من أن يضمن البقاء والخلود لأبنائه فوق أرض يغيرها وبآله تغيره وتطور مجتمعـــه ·

بلد اعطى المثل فى الكفاح المسلح لا بد أن يحقق المعجزات عن طريق المختبرات والاختراعات والانجازات فى البناء والتشييد فـى الفنون المعمارية والصناعية والهندسية ، والاوائل سبقونا الى هــذا فى الاندلس وفى تاج محل روعات وآيات هندسية تصدى لها باعجاب كتاب عالميون مثل مالرو المستنطق للحضارات العظيم ·

سكنت حضارة العرب منذ القرن الخامس عشر بعد المسيح لان العرب غلبوا واليوم ينهض العرب رويدا رويدا يتخبطون فى صعوبات لا حد لها ويدركون شيئا فشيئا ان القوة سر الوجـود وان الشعـر والخطابة لا يكفيان للحياة وان الانظمة السياسية الواهية والهياكـل البالية والمتطفلين على المسؤوليات دون تحضير ووعى وادراك كلهـا عوائق فى بناء الحضارة التى تستوجب التفانى فى العلوم وفى الاخلاق

الحميدة الفاضلة وفى الهمم القعساء التى تريد أبدا القمم فى الفنون والآداب والعلوم الانسانية فى التقدم والرقى بالشعب كله لتنهض به من عهد التخلف والجهل الى عهد رجل الفضا. •

كما نرى ينبغى لتفكيرنا وللتفكير العربى ان يتوسع وان لا يبقى متجمدا فى عهد الفقهاء القدامى او محدودا فى عهد المجددين الذين كانوا يعتمدون على التأويل الذهنى دون تحليل العناصر الاجتماعية والانسانية للمجتمع الذى يعيشون فيه ودون دراسة العالم الذين هم فيه همهم فقط الابقاء على الماضى فى اسلوب الجديد الظاهر •

الحياة لحضارتنا العربية فى التجدد وفى المقارنة وفى التحدى مع الحضارات السائدة فى عالمنا تأخذ وتعطى تترجم وتتطور تتفتح لا تنطوى على نفسها اننا نريد لنا ابن خلـدون ثانيا وبيـرونى ثانيا ولكن بأسلوب وطراز العصر الحديث فى البحث الجماعى والانتـاج والابتكار العلمى الملموس ، كفانا من حضارة الكــلام ولندخل فى حضارة الملموس ففيها سر الحياة والوجـود •

وعلى شبابنا فى هذا البلد أن يعتنق هذه المهمة فكل الوسائــل لديه وكل الشروط متوفرة أمــامه •

على شبــابنا أن يدرك كنه وسر التطـور فى التكنـولوجيا وفى الالكترون وفى علوم الفضا. بذلك يتغير ويتطور فكر الامة بــذلك يعرف ماضيه وحاضره وحقيقته لانه لا يمكن للانسان أن يمجـــد التخلف أو يفخر ويواصل التفاخر بما يجهله وبما لم يقمــه بنفسه • ولقد قال قائــل :

ان الفتى من يقـول ها انا ذا
ليس الفـتى من يقـول كان ابى

سيــداتى ســادتى :

أصالتنا عديمة الجدوى والفاعلية بدون تجدد شخصيتنا وتعدد مناهل معارفنا خارج حضيرة القديم وجعجعة طواحين الهواء •

لا بد أن نكون نحن وان نكون موجودين فى قطاعات المعــرفة العصرية الحية ولقد عرفت فرنسا وانجلترا والدول الاوروبية ازمات فى الحضارة وفى الفكر وتغلبت عليها واعتنقت الكفاح من أجل الوجود

بتجديد جامعاتها ومعاهدها وبتغيير هياكلها الاقتصادية والفنيـة ، وأشركت المثقفين فى الاشراف والتسيير واعتنت بمشاكل الشباب، والتعليم أيما اعتناء ، وصارت هذه المشاكل موضوع العصر ، وكيف بنا نحن حـديثى العهد بالاستقـلال وبأمـور البحـث فى التطـور والحضـــارات .

فتعرضنا لها واجب يمليه علينا ضميرنا وطموحنا فى بناء الدولة الجزائرية التى لن تقل شأنا عن الدول الحية التى تبذل الكثير من الجهد والمال ومن التفكير ، لتعمل على البقاء ودوام الوجود .

فى التجدد سر وجـودنا ، وفى معركـة الفكر والتقنيـة أسباب حضارتنا . لنعمل اذا كلنا لنساهم فى تجديد الحضارة العربيـــة الاسلامية التى ننتمى اليها ، ولندخل فيها بعد ثورتنا المسلحـــة ثورتنا الثقافية ، حتى نكون أحد عناصرها البارزين الخالدين .

والســـلام عليـــكم ورحمـــة اللـــه .

الـــروح الـــدينى فى الاســـلام
مصـــدره وأثـــره فى السلـــوك



د. الحبيب بلخوجـة
مفتش، الجمهورية التونسية
مغني

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

معالى الوزير ،

أصحاب الفضيلة حضرات الاساتذة ،

سيداتى سادتى ،

لقد دعانى الى اختيار هذا الموضوع «الروح الدينى فى الاسلام ، مصدره وأثره فى السلوك» ما يعانيه العالم الاسلامى اليوم من أوضاع تجعله فى كل حين يجرى وراء الاضواء التى يتخيلها ، والتى يريد أن يستمد منها الهدى ، وأن يستنير بها لتحقيق غايته ، والخروج من وضعه المؤلم ، وان هذا الوضع الذى هو عليه الآن بعد ان استطاع أن يقضى على الطغاة المستعمرين ، والمغرضين المستبدين ، الذين حكموا أرضه ، واستطاعوا أن يسخروا لانفسهم كل خير عنده ، وان يقتلوه ويضيعوا الحياة منه ، وجد نفسه بعد هذه الفترة فى وضع أشد ، وحالة أكثر خطورة ، ذلك أن غزو الارض قد تبعه غزو العقل،واستعمار البلاد قد تبعه استعمار العقول ، وهذه الحالة هى التى حاول كل واحد من اخوانى المحاضرين ، والشعراء ، والذين تناولوا الكلمة متداولين على هذه المنصة أن يتعرضوا لها باحثين عن أسباب هـذه الاضـواء ومحاولين الاشارة الى العلاج ولو من بعيد الى طرق العلاج ، لاماطة اللثام عن هذه الاوضاع وتمكين الناس من طريق الخلاص ، وماذا عساى أقول بعد هذه الروائع البينة ، وبعد هذه الكلمات التى فتنتنا بسحرها وبقوتها ، وبالايمان المتجلى فيها .

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 10/19 اوت 1970 م.

ولكنى مع ذلك اعتبرت من الواجب على أن اتبع كلمتى الاولى عن ماضى الثقافة الاسلامية ، وحاضرها ، بهذه الكلمة الثانية التى أعتبرها متممة لاختها ، ووصلة لها ، وقبل أن أتناول بحث هذه الجوانب ، أرى لزاما على أن أستهدى بمقالات الاخوان ، وتحريات المحققين ، وافكار الخطباء الذين تداولوا على الخطابة فى هذا الملتقى الرابع لاكشف عن بعض الحقائق التى أعتبرها حقائق ثابتة ، لا سبيل الى تغييرها ، ولا الى التنكر لها لكونها ستكون ذات أثر بعيد فى مستقبل حياتنا لجهادية .

فقد كانت الاحاديث الذى تداول الخطباء عليها فى هذا الملتقى موقظة للهمم فاحصة للادواء ، متكاملة فيما تناولته من أغراض وموضوعات ، لكونها بحثت أحوال المسلمين وتحدثت عن الاسلام وحاولت مع ذلك أن تغوص على الحقائق الايمانية ، وما لابسها من أحوال ، كانت مرة تمكن من المجد ومرة تحول دون هؤلاء المسلمين وبين الامجاد التى يتعلقون بها فاذا التفتنا الى هذه الاوضاع ، وجدنا فى الواقع الامة الاسلامية فى هذا الظرف العصيب الذى تمر به ، قد حاول المصلحون أن يأخذوا بيدها وأن يخرجوها مما هى فيه ، من أزمات ، ومن أحوال ، مازلنا حتى الآن ننكرها على أنفسنا ونتشاكاها ونحاول التخلص منها ، ولعل ذلك هو ما دعى بعض المحاضرين فى هذا الاسبوع لان يقول : ان الاصلاح فشل ، أو دعا بعض المتسائلين والمناقشين لان يقول : لماذا فشل المصلحون ؟ وأنا لا أرى شيئا من هذا الوهم الذى يدفع اليه اليأس لان المصلحين قد قاموا بدورهم على أكمل وجه ، ولان المجاهدين العلماء والزعماء قد قاموا بدورهم فى أيقاظ النفوس ودفع الهمم واخراج الناس مما كانوا عليه ، فاذا الامة الاسلامية فى كل الاقطار ، فى المشارق والمغارب تعلن الحرب الضروس وثورة حمراء على الاعداء ، وبذلك استقلت معظم البلاد الاسلامية ، ولولا أن المصلحين قد قالوا قولتهم ، ووجهوا بشىء من النور تلك العزائم القوية لما وجدت من أرض الاسلام اليوم رقعة مستقلة متحررة ، فهذا الاستقلال اذن هو برهان لماكان للمصلحين من ذوق فى تحقيق المراحل الاستقلالية ، وفى تحقيق الخلاص للتبعية الاجنبية .

لكن هذا الوضع ليس هو الغاية فى حد ذاته ، فان التخلص من

الاستعمار ، والخروج من التبعية الترابية والابتعاد عن هؤلاء الطغاة الجبارين الذين كانوا يستبدون بأموال الناس وارزاقهم ، وينتشرون فى العالم الاسلامى كالسرطان ، هؤلاء وان ابتعدوا عنا فان سلطانهم ما زال مكينا فينا ، وهؤلاء وان أقصوا من ديارنا ، وأخرجوا عن أراضينا فان شيئا من تكوينهم الفكرى ، وتوجيههم العقلى ما زال يسود مجتمعنا ويطبعها بطابعه ، وفى ذلك الخطر الكبير الذى يجعلنا وان تخلصنا من الاستعمار ترابيا ، لكننا باقين تابعين له فكريا وذهنيا ، وحتى عقائديا أحيانا ، اذا اعتبرنا من العقيدة التسلح من كل عقيدة والابتعاد عن أصول عقيدتنا السمحاء .

والوضع الجديد الذى أصبحنا عليه قد تقسم الجماعة المؤمنة قد تقسم البلاد الاسلامية ، وتقسم جمهور الناس فيه الى طائفتين :

طائفة تعتقد ان الخير كل الخير فى اتباع الغرب ، وترى أن الاوضاع الموجودة فى البلاد الاوروبية وفى العالم الغربى من مدنية زاهرة ، وتقدم عمرانى ، وحضارة باهرة ، ومبتكرات واختراعات يتجاوب صداها فى البيوت ، والمنازل والقرى ، والمدن ، وفى كل أرض الله كل هذا يجعلنا مضطرين لان نعيش عصرنا ومتمسكين بهذه الاوضاع التى فيها الشاهد والبرهان على تقدم أوروبا وتأخر غيرها واذ كان الغرب قد نال قدم السبق واستطاع أن يتفيأ تلك المنازل العالية ، وان يتقدم جموع الانسانية تاركا العالم الاسلامى وراءه يتبعه ويريد الالتحاق به والتشبه بكل خصاله ، فان الاسلام لا يكون الا باتباع الغربيين والاخذ بمناهجهم ومبادئهم ، فلا سبيل اذن لان ينهض العالم الاسلامى الا اذا أخذ باسباب الرقى الموجود فى العالم الغربى ولا طريق للخلاص مما نحن فيه الا اذا تسلحنا بما هو موجود فى العالم من طاقات الفكر ، وطاقات الصناعة ، وطاقات الخلق .

اما الطائفة الثانية فهى لا ترى هذا الرأى ، وتعتبره ردة وتحولا وترى أن الخير فيما كان عليه المسلمون السابقون ، وان الحضارة الاسلامية والمصادر التى نبعت منها هى التى ينبغى أن تكون الاساس فيما نحاول تحقيقه فى مستقبل الايام من مشاريع تقدمية ، ومن ثورات بيضاء تحقق الغد الافضل ، واذا كانت الحضارة الاسلامية فى ماضيها قد توفرت فيها الطاقات ووجدت بها المعجزات ، واستطاعت أن تملا الدنيا حديثا كما يملؤه الغرب اليوم ، فلم لا نعود الى تلك الحضارة

والى أسبابها ، والى طاقاتها ، والى ما تجمع من قوة تشهد بفضل تلك الحضارة على غيرها ، خصوصا وقد كانت هى السبب فى تقدم أوروبا وغيـرهـــا .

لكننا حين نميل الى الرأى الاول نكون قد أسانا التصور ، وحين نميل الى الرأىالثانى نكون قد غالينا فى التعلق باشباح مـاضيــة لا سبيل لتحقيقها اليوم على الوجه الذى كانت عليه،لان التعلق بالاسباب الموجودة فى الغرب ، يكون تعلقا بالناحية المادية الصرفية التى لا وجود فيها للطاقة الروحية ، والتعلق بالاسباب القديمة الحضاريــة الموجودة فى العالم الاسلامى هو تعلق أيضا لا يفيــد اذا كـان عـلى المقاييس القديمة فحسب ، والذى لا ينظر الى التطورات الحديثة فى هذا العصر الجديد ، الذى يملؤنا فى كل يوم بطاقات جديدة متولدة عن هذه الصناعات والمخترعات .

ومثل هذه الاوضاع يدعونا بغير شك لنتوقف متأملين فى وضعنا الجديد ، والاسباب التى نأخذ بها لعزتنا وتحقيق مستقبلنا السعيـد ولا يظنن واحد منا ان الاسلام لن يجد غدا أفضل ، أو ان المسلمـين لن يستعيدوا مجدهم وحضارتهم ، فان كل قائل لذلك يكون مخطئا مخطئا فى عقيدته ، وبالتالى مخطئا فى سلوكه ، لان الخطأ فى العقيدة يتفرع عنه الخطأ فى السلوك ، واذا ماكان السلوك خاطئا لم يتحقق شىء مما نأمله ونتمناه للمجتمعات الاسلامية .

وهنا لابد أن نعود الى السيد جمال الدين الافغـانى ، صــاحب الدكتور غثمان أمين الذى حدثناعنه طويلا ، وذهب بين الجوانيــة والبرانية ، يصف المجالات التى شغل نفسه بها، والطاقات الاصلاحية التى بذلها لهذا المجتمع الاسلامى ، وأرى لزاما من أجل انارة الحق ، والكشف عن الطاقات الاسلامية أنأذكر بقصتين لجمال الدين الافغانى يميطان اللثام عن حقيقة الاصلاح فى نظره ، ويكشفان عن المــدد الموجود فى الدين الاسلامى ، من أجل تجديد هذه المجتمعات ، والخروج بها مما هى فيه ، فالسيد جمال الدين لافغانى لم يكن بالرجل الـذى يرضى النسب ، ويتلهى عن الحسب ، لم يكن بالرجل الذى يرضى أن يفاخر بما كان لاسلافه من غير أن يعمل هو ، والمسلمون من حوله من أجل تحقيق أشياء جديدة تكفل لهم العزة والمنعة ، والذى يـدل

على ذلك أن السيد شكيب أرسلان زاره وهو صبى ، وهو شاب صغير السن ، فى معتقله بالاستانة ، وقال له ، لقد وقع الاعلان عن مسابقة من كلية ديجو فى فرنسا موضوعها : «من الذى اكتشف أمريكا أولا ؟ » وقد فكر كثيرون فى الكتابة والدراسة ، من أجل ان يحصلوا على أشياء مادية ، وأردت أنا شخصيا ان أقوم بمثل هذه الدراسة ، لان عندى ما يثبت أن العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا ، وغايتى من هذا ليست الحصول على المنافع المادية ، ولكن أريد أن أثبت حقا تاريخيا ينساه الناس ويتجاهلونه ، فقال له السيد جمال الدين الافغانى : وأى شىء ينفعنا اذا ثبت الدليل القطعى ان العرب فتحوا أمريكا ؟ وما هم عليه الآن ؟ فاذا قارنا بين وضعهم الحالى وما كانوا عليه انما يزيدنا ذلك يأسا وقنوطا ، لان المرحلة البعيدة بين أسلافنا وبين ما نحن عليه تجعلنا نحقق شيئا من تلك الامجاد التى كان يستطيع أسلافنا تحقيقها ، ومن أجل ذلك ينبغى ان تبحث فى موضوع آخر يكون على أجدى وبك أنفع .

وأما النقطة الثانية التى مازلت أحفظها **لجمال الدين الافغانى** رضى الله عنه فهى تتمثل فى كونه قد سئل ذات يوم من بعض أصدقائه عن رأيه فى الاصلاح ، وكيف يرى تغيير المجتمعات الاسلامية مما هى عليه ؟ وعند ذلك قال : لو وكل الى أمر المسلمين جميعا ، وأذنت **أن أقوم بما اريد لقتلت كل فرد تجاوز عمره اثنتى عشر عاما ، من الرجال والنساء جميعا ، ذلك لانى اريد أن أطهر الامة الاسلامية من عقول دخلها الشك ، ودخلها اليأس ومرضت القلوب فيها بادواء لا سبيل الى علاجها ولا الى ارجاعها مما هى عليه ، فان كانت هى النخبة بعد ذلك ، نخبة الشباب أو نخبة الاطفال ، فانى انشؤها تنشئة اسلامية تكفل لها بعد ذلك استرجاع كل معانى المجد ،وكل أسباب العزة والمنعة** ، فاذا كانت هذه الآراء التى تحدثنا بها الدراسات عن السيد جمال الدين الافغانى ، فان هذا يؤكد لنا فى عصرنا هذا الجديد الذى يختلف عن عصر جمال الدين الافغانى ، اذ لم نعد فى حاجة الى قتل النفوس ووأد البنات ، ولا القضاء على من تجاوز عمره اثنتى عشر عاما ، لان وسائل التبليغ اليوم وطرائقه فى المجتمعات الاسلامية المتحررة التى استطاعت أن تتخلص من كل شر تمكننا من قيام المصلحين ، أو تمكن المصلحين من القيام بواجباتهم

لتحقيق العزة القومية ، والذى يملأ نفوسنا ايقانا بأن العزة القومية راجعة لابد والسيادة الاسلامية متحققة وان بعد قرن ، ما دلت عليه طبيعة الاسلام والمسلمين من قوى لا نجدها فى غيرها من الامم ، فقد جاء فى بعض هذه المحاضرات ان الحضارة الاسلامية لعبت دورها وانتهت ، واذا كانت لعبت دورها وانتهت فاننا لسنا فى حاجة لان نترقبها من جديد لتأتى بدورها الثانى أو تقوم بعمل آخر ، لانها ككل الحضارات القديمة قامت بدورها، وأصبحت حلقة من حلقات الحضارة الانسانية ، فكما مرت الحضارة اليونانية تتبعها الحضارة الرومانية تتبعها الحضارة الفارسية ، تتبعها الحضارة العربية ، تتبعها الحضارة الاوروبية،فان المستقبل لحضارات أخرى ولا يمكن أن يكون للحضارة الاسلامية ، لان الحضارة الاسلامية أدت واجبها ، وقامت برسالتها وانتهى الامر :

الجواب عن هذا الرأى الذى يقول بأن الحضارة الاسلامية انتهى دورها ليس رأيا آفلا ، ولا هو بالضعيف فى الواقع ، لكنه يسند الى شىء عادى ، يمكن أن نلمسه فى كل الحضارت ،ولا يعتمد فى شىء النقطة القوية ، والطاقة الفياضة الموجودة فى الدين الاسلامى ، وفى الجماعة الاسلامية ، اذا كانت الحضارة راجعة ومنسوبة الى الامم التى قامت بها وحققتها ، قد مرت كما تمر الحلقات ، وكما تمر الاسر والافراد بمرحل ، هى المراحل الاربعة التى أدرانا بها الدكتور على عبد الواحد وافى ، هذه المراحل التى أشار اليها ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمته ، وهى المراحل الاجتماعية ، الطبيعية التى لابد أن تتوفر وأن تتحقق بالنسبة لكل أسرة ، وبالنسبة لكل فرد ، وهى مرحلة الشباب ، مرحلة الفتوة أو مرحلة الولادة، ثم مرحلة الشباب ، ثم مرحلة الكهولة ، ثم مرحلة الفنى او الشيخوخة اذا كان كل فرد يمر فى المرة الاولى بمرحلة الطفولة فيكون دارجا ويكون متعلما ، ويكون محاولا ، ولكن ليست له قوة الشباب ، ولا أصالة الكهول ، ولا حكمة الشيوخ فانه فى هذه المرحلة يكون محاولا ، يكون محاكيا ، وبمحاكاته وبمحاولاته تتكون شخصيته وينتقل من طور الطفولة الى طور الشباب ، فيضاف اليه عنصر جديد وعنصر الحماس وعنصر الشجاعة والقوة ، لكنه بعد مرحلة الشباب ينتقل الى مرحلة الكهولة ، التى يتم فيها عقله ، وتكمل له بها مداركه واذا مر بهذه

المرحلة وتجاوزها الى المرحلة الرابعة والاخيرة ، وهى مرحلة الشيخوخة ، لا يمكن أن يؤتى الثمار ، وان يحقق ما يريد تحقيقه من الغايات ، ولكنه لا يعيش بعد ذلك طويلا ، ولا بد أن يفل نجمه ، واذا مراحل العمر هى طفولة وشباب ، وكهولة ، وشيخوخة ، ففنى ، لان كل موجود قبله عدم ، وبعده عدم وأريد الكائنات الحديثة لا الكائن القديم الازلى ، فان المجتمعات والاسر التى تكتنف من الافراد لا بد أن تمر بهذه المراحل ، فالاسرة هناك من ينشؤها ويكونها ، ثم هناك من يمضى بها قدما حتى تلمع ، ثم تأتى مرحلة أخرى تبدو فيها تلك الاسرة أرقى الاسر ، لكنها بعد ذلك تنتابها الامراض وتشيخ وتضعف وتتلاشى الاسرة بعد أن كانت معروفة ويذهب ريحها ، وتصبح بعد ذلك مسجلة فى الدواوين أخبارها ، وهذا شأن الدول حين كانت الدول أسرية ، لانها مرتبطة بالاسر ، وقائمة على عائلات ، فان الاسرة والدولة تكون أولا مؤسسة ثم تكون بعد ذلك مباشرة ، ثم تكون بعد ذلك مقلدة ، ثم تكون بعد ذلك هدامة ، تكون مؤسسة للملك وللسيادة وللقوة ، وللثروة ولكن طاقات المجد فى طور الفتوة ، لكن اذا ذهب المؤسس يوجد بنوه الذين عاشوا تلك الفترة فيباشرون نفس العمل خلفا لما قام به آباؤهم من قبل ، فاذا ابتعد الظرف وطال الجيل فان الفترة الثالثة يكون بها المقلدون ، والمقلد مهما حاول أن يأتى ما أتى به السابقون لا يكون فى تقليده ناجحا ، ويكون أقل نضجا ، وأقل حماسا مما كان عليه المباشر والمؤسس · فاذا جاء الطور الاخير فان ابناء المقلدين ينظرون فيما حولهم فاذا أسر جديدة تلمع ، واذا دول جديدة تظهر ، واذا طاقات وقوات لم يكن بعدها من قبل ، فاذا هو يرى أن الوضع الذى يعيشه ليس بالوضع الذى يحقق مجده ، فيسرع الى تهديمه وتقويضه ، وبذلك تنهار الدولة أو الاسرة ·

فاذا كان الذى يقول ان الحضارة الاسلامية هى حضارة قامت بدورها وانتهت من وضيفتها وتبليغ رسالتها ، وأن على غيرها من الامم أن تقوم بعدها بوضيفة الحضارة ، وتكميل هذا الجدار الحضارى الانسانى ، اذا كان رأيه هذا مبينا على النظرية التى قلناها ، وهى نظرية ابن خلدون ، فان لنا من ديننا ومن روح عقيدتنا ومن مذاهبنا الاجتماعية والسلوكية ما يتحول بنا من نظرية ابن خلدون الى نظرية محمد بن عبد الله (ص) ، فان النبى الاعظم والرسول الاكرم محمد

صلى الله عليه وسلم ، قد أعطانا طاقات أخرى لا توجد فى حياة الاسر ولا الافراد ، وانما توجد مقترنة بالعقيدة صافية ، مقترنة بالايمان ، مقترنة بالروح الدينى ، واذا كان الروح الدينى باقيا ، واذا كـانت العقيدة صافية ، واذا كان الايمان قويا ، فان هذا الايمان وتلك العقيدة يستطيعان مالا تستطيع الاسر فى أعمارها ، ولا الافراد فى أحوالها الاجتماعية التى تمر بها ، والذى يدل على ذلك أن النبى (ص) بشرنا بأن الله يبعث على رأس كل قرن أو كل مائة عام من يجدد أمر هـذا الدين ، وهؤلاء المجددون المصلحون هم الذين يعيدون الى الـدين والى الامة الاسلامية شبابها ، فاذا رفع الكابوس الاستعمارى ، فـانا من حقنا ومن حق العلماء والمسلمين أن يستعيدوا شباب الاسلام مما يوفرونه من طاقات تمكنهم من استرجاع السيادة الحقـة ، والعـزة والمنعة التى وعدها الله المؤمنين ، ويدلنا على هذا فى الماضى اللغة التى كانت من بعض المستشرقين الفرنسيين (رونى قروسى) فى كتابه «تاريخ آسيا» اذ قال : ان هجمة هولاغو على بغداد كانت قاضية على الخلافة العباسية ومبيدة للروح الاسلامى فى جميع الاقطار التى كانت تابعة لتلك الخلافة ، وان الامة الاسلامية فى مختلف أقطارها ، وان فى مصر حيث قامت الخلافة الجديدة التى حاولها رجال المماليك ودعـوا من أجلها آخر ملوك العباسيين أو خلفائهم ، الى أثر منطقى شرعى فى الولاية والحكم ، فاذا هم بعد ذلك يريدون تجديد الخلافة العباسية فى البلاد المصرية ، وظهر كثير من العلماء ، وتشجعوا للقيام بأدوارهم على أكمل وجه ، لكن الوضع فى البلاد المصرية ، والوضع فى بـلاد الشرق كلها ، فى العراق ، وفى الشام ، لم يكن يسمح أبدا بتجديد تلك الروح ، وتكوين تلك الدولة الجديدة التى تستطيع أن تعيـد للاسلام شبابه ، فكانت هذه الاحوال تحتاج الى قوة ، والى فتوة ، والى شجاعة ، والى ايمان وحماس ، وكان من أجل تحقيق كل ذلك نشأة الخلافة العثمانية فى البلاد التركية التى استطاعت أن تعيد للاسلام بهجته وان تقوم بغزو البلاد الاوروبية وفتح الاستانة ، وتكوين الدولة الاسلامية ، والامبراطورية العظيمة التى امتد سلطانها الى كثير مـن البلاد العربية ، ثم هى أيضا انتابها ما انتاب العالم الاسلامى ، ومـا انتاب الدول الاسلامية ، لانها مرت بتلك المراحل ، ثم انتهى دورها وربما انقلبت الى الضد فكانت معول تحطيم ، بعد أن كانت معول بناء

لكن هذا جميعه لا يدفع الى قلوبنا اليأس ، ولا يجعلها عامرة بشيء من الخوف على المستقبل ، بل ينبغى أن يكون فى الطاقة الايمانية ، ما يدفعنا الى الاعتزاز بعقيدتنا والايمان بمستقبلنا الجديد ، الذى نـراه نيرا وضاء يستطيع فيها المسلمون أن يقوموا بواجباتهم كما قام بها الاسلاف من قبل ، والذى يوافق ذلك أن الشريعة الاسلامية التى وقع الحديث عنها حديثا عن فلسفتها ، وحديثا عن فقهها ، حديثا عن فلسفتها بما يثبت لها الجدة ، والقوة ، والروعة ، والطاقة الخـلاقة ، وحديثا عن فقهها حديث من يشك فى هذا الفقه أحيانا ، وحديث من يفقه بهذا الفقه أحيانا اخرى .

هذه الشريعة الاسلامية التى دستورها القرآن ، وأساسهاالحديث وطريقها الاجماع ، وسبيلها القياس ، فى كل الجزئيات التى تحدث وتجد بالنسبة للمجتمعات الاسلامية اليوم هذه الشريعة الاسلاميـة باقية ما بقى الدهر ، وهى متطورة ونامية ومتجددة ما تجددت الايام وبهذه القوة من البقاء ومن التجدد يكون للاسلام غده ، ولا يكـــون بماضيه فقط والذى يشهد بذلك أن الله سبحانه وتعالى تكفل بحماية هذا الدين ، قال تعالى : «**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظـون**» ، وحفظ الذكر حفظ لامة الذكر، وحفظ الذكر حفظ للغة العربية وآدابها وحفظ الذكر حفظ للطاقات التى تستطيع بها الامة أن تطول وأن لا تزول ، أن تبقى ولا تفنى ، أن تستعيد الشباب وأن تستعيد الفتـوة ، بما فى طاقات هذا الدين من روائع خلاقة وآيات مبدعة ، ومثال صغير لذلك : هذه الفتن التى قامت فى داخل العالم الاسلامى ، وتريد أن تكيد للدين وللغة ، تريد ان تكيد للدين بما أحدثت من محن وأهواء وتريد أن تكيد للغة بما أحدثت من بلبلة وشك،فاذا كثير من الدارسين اليوم يقولون ان هذه اللغة لانعرف شانها،أهى لغة عربية تستطيع أن تساير العصور الحديثة ، وتتحمل الرسالة كما تتحملها اللغات الحية الجديدة ؟ أم هى لغة كتلك اللغات التى نقرؤها ونجدها فى الدساتير القديمة مثل اللاتينية واليونانية ، وبذلك فهى لغة ميتة .

لكن اللغة العربية لها أصالتها كتلك التى وجدت فى اللغة اللاتينية وفى اللغة الرومانية ، وفى اللغة اليونانية ، ولها الجد الموجود فى اللغات الحية ، فهى مستمرة نامية ومحافظة على أصالتها ، مع تطورها وحياتها التى تقوم البراهين الكثيرة عليها من كلامكم ، وأحاديثكـم ،

ومحاضراتكم ، ودراساتكم التى تقرؤونها كل يوم ، فاذا كانت هذه الاوضاع تجعلنا مؤمنين بأن الامة الاسلامية لم تنتـه ، والحضـارة الاسلامية سوف تعود ، لا باعتبار ذلك أملا ولا باعتباره أمنية من أمانينا العذاب ، ولكن باعتباره حقا وشرعا واننا نستطيع ان نحقق ذلك ، ونحن مسؤولون عن تحقيقه ، اذا كان ذلك ايمانا يملأ قلوبنا وكان ذلك عقيدة تنير سبيلنا ، فنحن قادرين لا محالة على بعث الاسلام الجديد فى عهده الجديد كما نريد ، ممدا للعالم الانسانى والحضارى الجديد بالطاقات التى يفقدها اليوم ، وهى طاقات الروح الاسلامى ، ولذلك فأنا لا أرى فى هذا الوضع الذى يعيشه العام الاسلامى ، والذى نجابه به المشاكل المختلفة داعيا للحيرة ، ولا موجبا لليأس ، لان الاصلاح والبحث عن وسائل الحلول كفيلان بتحقيق هذه الحيـاة الجديدة التى نعمل من أجلها ، نبذل قصارى الجهد لتحقيقها ، فاذا حاولنا بعد ذلك أن نلتفت الى سبيلنا فى تكوين هذا الغد الجـديد ، وبعث تلك الامجاد القومية على النحو الذى تكون به متلائمة مع الحضارة العصرية والوضع الراهن فى المجتمعات الغربية ٠ فانى لا أدعوا بأن نأخذ بأسباب الغرب فحسب ، وان كانت هذه الدعوة لاسبيل للابتعاد عنها فيما يعود الى الطاقات التى نحتاجها من حضارة الغرب ، ولا أدعو الى التمسك بالقديم تمسكا نموت عليه ، ويكون قوامنا فقط فيما يعود الى الطاقات القديمة التى تصبح مماشية لركب حضارة اليوم ، ولكنى أقول ينبغيأن نأخذ بالاسباب الحضارية الجديدة واسبابالتقدم العلمى والتقنى ، واالعمرانى ، وما الى ذلك ، وينبغى أن نضيف اليه سببا آخر هذا السبب الآخر هو الذى لا نعيش به حاضرنا متحولين عن ماضينا ، ولا نعيش به التقدم التقنى متحولين عن عقيدتنا ، هذا الذى أدعو اليه هو الرجوع الى الروح الدينى الاسلامى الذى كان الطاقة التى تمد النفوس باكسيرها فى العصور الماضية وهى الطاقة الباقية التى تستطيع أن تمد النفوس باكسيرها فى حياتنا الجديدة ، فاذا ما تحولنا الى هذا الروح الدينى نبحثه ، يكون علينا لزاما أن نتصور الروح الدينى قبل كل شىء وعيا ، وادراكا للحقيقة الاسلامية فى جوهرها الكامل ، الذى لا يمكن أن تنخره قادحة ، وينبغى أن نتصور الروح الدينى تكوينا فكريا خاصا تتميز به الجماعة الاسلامية عن غيرها من الجماعات ، كما تميز الصحابة رضوان الله عليهم فى عهد

النبى (ص) بروحهم الدينى عن غيرهم من الامم ، فاذا توفر هذا الوعى الاسلامى وتكون ذلك الفكر الخاص الدينى ، فان لنا من هذين من الوعى الاسلامى ومن التكوين الفكرى الخاص ثقافة ، يكون لها سلطان بعد ذلك على سلوكنا ، وعلى أعمالنا ، وعلى كل ما نأتى ونذر فى حياتنا الفردية ، وحياتنا الجماعية ، وهنا لا أكون فى حاجة لان أشرح مدى تأثير الروح الدينى فى السلوك ، ولا ما فى الروح الدينى من طاقات ، لان حضراتكم تعلمون ان الروح الدينى يقوم على شعب ثلاث من الطاقات :

الشعبة الاولى : تتألف من عناصر ثلاثة :

العنصر الاول : هو المعرفة ، والمعرفة هنا هى معرفة الله معرفة الاسلام ، أو معرفة المسلم ربه ، **ثم ثانيا : ايمان بالله** ، والايمان لا يثبت ، ولا يقوى ، ولا يستطيع أن يخلق المعجزات الا اذا انبنى على المعرفة ، أما ايمان بلا معرفة فانه لا يولد حماسا ، ولذلك فان المعرفة التى يتولد عنها الايمان ، والايمان الذى يتولد عنه الحماس تكون هذه العناصر الثلاثة

الشعبة الاولى التى تعتبر طاقة من الطاقات للروح الدينى ، وقد عرفنا ذلك فى حياتنا الاجتماعية فى كفاحنا ، فان الامة الاسلامية حين عرفت ما انتابها فى هذا العصر الاخير وما أقض مضجعها ، وآمنت بواجبها الذى رأته قدسيا لا يجوز لها أبدا أن تتخلى عنه ، استطاعت بعد ذلك أن تتحمس له ، وأن تطرد الاعداء والمستعمرين من الاراضى الطاهرة المغصوبة التى كانوا يقضونها بما يرهبون به المسلمين الضعفاء العاجزين بالامس ، الاقوياء باليوم .

اما الطاقة الثانية ، أو الشعبة الثانية من هذه الطاقات فى الروح الدينى فهى بعد ذلك للايمان ، الذى يقول عنه الشاعر :

روح الفداء قوية الايمان

يجعل المسلم ويجعل العارف بربه ، الموقن بعقيدته ، المتمسك بدينه ، شاعرا بأن عليه أن يتحمل مسؤولية ، وتلك المسؤولية هى فى تلقى الرسالة ، الرسالة التى أمر النبى (ص) فى حجة الوداع بتبليغها للناس حين قال : «اللهم انى قد بلغت ، اللهم فاشهد وليبلغ منكم الشاهد الغائب» فهذه الامانة التى وضعها فى أعناقنا ، هى التى

نحن مسؤولون على تبليغها ، وهذا التبليغ يحتاج مع الحماس له الى خلق سبل جديدة للدعوة ، الى خلق سبل جديدة لتطهير النفوس الى خلق أمثلة قوية رائعة تسبتطيع أن تعيد للمسلمين عزتهم ، فيتأسى بذلك غير المسلمين ويتبعون الحق الذى يجدون عليه الدلائل من الدين .

وعقيدتى أن هذا الروح الدينى ، وتلك الطاقات الموجودة به ، لا تؤثر فقط على الفرد أو على الاسرة ، بل هو متنقل ومتعدد بتعدد الافراد ، من الاسرة الى الجماعة والحى ، ومن الحى الى الشعب أو الوطن ، ومن الشعب والوطن الى الامة والملة ، ومن الامة والملة الى الانسانية جمعاء ،وهذا الروح الدينى وهذه الطاقة الخلاقة، وهذه القوة العجيبة التى توجد فى الدين الاسلامى ، هى التى نبه عليها الشارع ولفت القرآن اليها الانظار حين قال : «**كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله**» .

فالدعامة الاولى اذن هى الامر بالمعروف ، أمر بالمعروف لا يعرف فى الحق هوادة ، أمر بالمعروف ينشر الاسلام والسلام، أمر بالمعروف ينبه النيام ، ويوقظ الناس من سباتهم ، ويحملهم على الخيرات ، ونهى عن المنكر يحال بين الناس وبين الشر ، يحال به بين المسلم وألوان الطغيان والافك ، يحال به بين المسلم والآثام ، التى لا يكون شرها مقصورا على من يأتى الشر ، ولكن شرها يكون مستطيرا لانه يتجاوز ذلك الفرد الى الجماعة .

واذا كانت الدعامة الاولى أمر بالمعروف ، والدعامة الثانية نهى عن المنكر ، فان الدعامة الثالثة التى تكون كقطب الميزان بين الكفتين ، انما هى الايمان بالله وحده لا شريك له ، لان فى الايمان بالله ما يتكفل بالمضى فى خدمة الاسلام ، وتحقيق هذين الامرين الجليلين ، اللذين دعا اليهم الاسلام ، وهما الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واذا كان هذا هو روح الدين ، وتلك هى الطاقات فيه ، وكانت هذه هى الدعائم التى تقوم عليها الشريعة الاسلامية ، فلا بد علينا من أن نعود الى مصادر هذا الروح الدينى ، أين نطلبها ؟ وفيما نجدها ؟ وكيف السبيل اليها ؟

مصادر الروح الدينى معروفة واضحة ، **هى قبل كل شىء القرآن**

الذى قال فيه **ابن ابى طالب** كرم الله وجهه «**ان اسفله لمغدق وان اعلاه لمثمر ، وان به لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق مع طول الرد**» ، هذا القرآن الذى نستطيع فى كل يوم أن نستمد منه طاقات جديدة ، وأن نأخذ منه الاسباب التى فيها عزة المسلمين ، وان نواجه بالوجه الذى يكفل لناكل المصالح التى نحتاج اليها دنيوية وأخروية،لكن على شرط أن نرعى فىدنيانا ديننا ، وفى سلوكنا ربنا،وفى حياتنا اليومية شريعتنا،اذا نحن فعلنا ذلك نستطيع أن نجعل من القرآن مددا وسندا فى حياتنا الجديدة التى نريد أن نتغلب فيها على الصعاب ٠

والمصدر الثانى من مصادر هذه الروح أو هذا الروح ، هو **الحديث النبوى الشريف** فان النبى (ص) قد لقن الناس المعرفة والحكمة ، وأتى جامع الكلم ، واستطاع أن يكون موجها فى قومه أو فى بيته ، المسلمين جميعا ، ترك فيهم ما لو أتبعوه وتمسكوا به لما ضلوا ولما ابتعدت عنهم العزة ، ثم لنا فى رسول الله اسوة حسنة وفى صحابته الهداة المهديين الذين قال عنهم : «**أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**» ، ثم فى عمل العلماء والمصلحين ، الذين تلقفوا هذه الامانات واعادوها الينا بيضاء نقية كى نتبعها ونهتدى بهديها ، وما لنا أمة التوحيد ، مالنا وهذه الشريعة عهد والتزام لله بيننا تفرض علينا مراعاة حدود الله ، كما تفرض علينا تبليغ دين الله تفرض علينا حدودا قد وضعها الله للجماعة الانسانية أين كانت،وأنى كانت وكيف كانت ، وتضع لنا دساتير ونظم ، لابد من مراعاتها وملاحظتها لنكون دائما على يقظة مما حولنا ، ومما ينتابنا فنسلك سبيل الراشدين ٠

واذا كانت الشريعة الاسلامية قائمة على هذا الاساس من الايمان ومراعات الحدود والتبليغ لهذه الامانه لمن يأتى ويلحق بنا، وخصوصا هذه الاجيال الصاعدة من حولنا ، فان سبيل ذلك لا يصعب ، وليس بالامر الذى نجد فيه مشقة، فكلنا نعرف هذا الدستور ونحفظه ونكرره وقد وعيناه ، ولكن وعينا له كان قليلا ، هذا الدستور تضمنته آيات بينات ، آيات خص بها الشعب الاسلامى ، وكانت نافلة ومزية باهرة وآية ظاهرة فى الامة الاسلامية ، وحدها دون سائر الامم ، وما ذلك الا السبع المثانى التى نرددها صباحا ومساء فى كل يوم على الاقل

عشرات المرات فى صلواتنا وفى وقوفنا بين يدى ربنا . هذه السبع المثانى، هذه الآيات التى هى آيات سورة الفاتحة ، هى آيات لو أدركنا مغزاها ، وتصورنا على الحقيقة معناها ، لتبينا أنا نكذب على أنفسنا كل يوم بقدر ما نقرأ الفاتحة ، نكذب على أنفسنا كل يوم وفى كل تلاوة بأن لا نعبد الا اياه ، وان لا نستعين الا به ، وقد نظر الى هذه الآيات البينات كثير من المفسرين، ومن بينهم ابن قيم الجوزية فقال : ان الآيات تشتمل على عناصر رائعة للايمان ، وطاقات قوية فى الاسلام مردها ثمانية :

أولا : حمد الله حمدا خالصا لا يمكن أن يلحق فيه به غيره،فالحمد بهذه الاداة ، الحمد لله ، يجعل ذلك التعبير خالصا لله بحيث يمدح الناس ولا يحمدون ، ويشكر الناس ولا يحمدون ، والحمد لله على آلائه الظاهرة والباطنة ، فهو الذى خلق الانفس وبرعها ، وهو الذى يدفع عنها الاخطار فيما تشعر به وما لا تشعر به فى أناء الليل وأطراف النهار ، فالخالق البارىء المصور يحتاج منا الحمد ، ويحتاج منا بالتالى الى الاعتراف به والايقان بوحدانيته ، والاخلاص فى عبادته ، ثم الايمان والايقان باليوم الآخر لكونه ملك يوم الدين ، فهذه العناصر لا بد منها وهى ضرورية فى عقيدة المؤمن ، ثم نجد التعبير الرائع الاسلامى العربى الذى يجعل العبادة صورة على ذات الله تعالى ، والاستعانة مقصورة عليه فيقول (اياك نعبد) نخصك بالعبادة ، (واياك نستعين) نخصك بالاستعانة ، فنحن لا نعبد غيرك أبدا ، ولا نستعين بأحد سواك ، وقد يكون هذا مذلا باللسان ، وتشدقا بالقول ، فيما نأتيه كل يوم لكوننا فى الواقع نشرك بعبادته اذا ملنا عن الدين ، ونستعين بغيره اذا كنا لا نتمسك بحقيقة اليقين ، وما ذلك الا الفتنة التى نجد أنفسنا فيها ، فتنة الحياة الدنيا، لاننا حين خرجنا من العدم الى الوجود،ونزلنا هذا المجتمع أو هذا المحيط الانسانى ، وهذه الافلاك السابحة فى الاجرام المختلفة ، أو مع الاجرام المختلفة فى جو السماء بين يدى الله وفى قبضته، نزلنا وهبطت الروح، كما قال ابن سينا :

هبطت اليك من المحل الارفع * ورقاء ذات تعزز وتمنع

هبطت هذه الروح لتكون فى هذه الدنيا فى دار ابتلاء فى دار امتحان ، ولذلك أشفق بعض الناس منها وأحبها آخرون ، فاذا

بطائفة تعتبر هذه الدار الدنيا دارا مؤلمة ، دارا يتعذب فيها الناس دارا ينبغى الانصراف عنها :

ياطالب الدنيا الدنيــة انها * شرك الردى وقرارة الاقدار

دار متى ما أضحكت فى يومها * ابكت غدا تبا لها من دار

ويقول أبو القاسم الحريرى :

مسكين ابن آدم وأى مسكـين ، ركن الى الدنيا بغـير ركـين ، وذبـح من حبها بغـير سـكين ، يكلف بها لغباوته ، ويكلب عليهـا لشقاوته ، ولا يتـزود منها لآخـرته •

أقسم بمن مـرج البحرين ، ونور القمـرين ، لو عقل ابن آدم لما نـدم ، ولو فكـر بما قدم لبـكى الدم •

وننظر الى الشيخ الرئيس بن سينا لنرى رأيه فى الدنيا واهلها فاذا هو يقول :

دار اليمهــا موجـع ، ولـذيـذها مستبشــع ، وصحتهـا قــسر أضــداد ، على وزن أوعـــداد •

اليمها موجع لا يتحمل ، ولذيذها مستبشع لانه ينتهب الفقــر والشعور بالحرمان ، وصحتها ـ أى بناؤها ـ قسر اى قهــر أوزان وأضداد ، أى قهر لاشياء الغير المتناسبة على أن نتعايش وان تتعاصر، فالبليد مع الذكى ، والجاهل مع العالم ، والصالح مع الطالح ، والمصلح مع المفسد ، والخير مع الشرير وهكذا الدنيا •

واذ القرآن يصفها لنا حين ينتهى المنتهون، ويعيش فيها المترفون لاهين عن أخراهم • • •

وفى نظر رسول رب العالمين محمد (ص) فهى متجر أولياء الله ، واذا كانت متجر أولياء الله فان الانسان يعلم انه لا يحيا ليعيش أبـد الآبدين فى هذه الدنيا ، ولكنه يعمل فيها لآخرته ، ويتحول من طاقة فانية الى طاقة باقية ، ومن جهد يذوب ويتلاشى الى شىء يستطيع أن يبعث وان تكون له الكينونة الدائمة ، وبذلك فان استقامة الدنيا فى الواقع لا يمكن أن تتحقق لاصحاب المذهب الاول ، ولكنها تتحقــق للذين يستطيعون أن يوازنوا الميزان الحق فى أعمالهم ، بينما تطلب الحياة الدنيا منهم ليقوموا بذلك أودها ، وما تتطلبه الحياة الاخرى

منهم ليحققوا لهم السعادة الابدية ، وبهذا لا يكونون قد أفرطوا كما افرط اليهود ، وافرط النصارى ، وأفرط الملاحدة ، لان هؤلاء ألهتهم دنياهم عن أخراهم ، وذهب منهم الروح الدينى ، وأصبحوا اليوم يشكون اليأس والقلق والاضطراب ، وهم مع تقدمهم فى العلوم الآلية والتقنية يكثر فيهم الضلال ، وتكثر فيهم الفتنة وييئسوا من روح الله ومن الحقائق الحقائق الوجودية الكامنة فى الطاقات التى خلقها الله ، فاذا بالكثير منهم يقتل نفسه وينتحر ، لا يريد أن يتشجع لحمل الاعباء فى هذه الحياة الدنيا ، ثم هو بعد ذلك لا يقوم بالرسالة الفاضلة التى قام بها المسلمون من قبل ، واذا كنا لا نريد أن نكون مفرطين كما فعل النصارى واليهود والملاحدة والمعطلة فكذلك لا نريد أن نكون مفرطين ، كما كا نالامن بالنسبة لاسلافنا المباشرين لاسلافنا القريبين ، لاسلافنا الذين ذهلوا عن واجباتهم وقضوا ردحا طويلا فى سباتهم ، وتحملو الاهانة والمهانة والذل والاستعباد، ورضوا بالحياة الذلية ، حياة الحرمان خفوا من مقارعة الاعداء ومجابهة الاقوياء والانتصار عليهم بكلمة الحق التى هى كلمة الله .

واذا كنا لا نريد أن نكون مضطرين فان سبيلنا فىذلك قول رسول الله (ص) : «**اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كانك تموت غدا**» ، فاذا التفتنا الى الدنيا وحققنا ما يمكن أن يظمن لنا الحياة الكريمة والتفتنا الى الآخرة فضمننا ما يكفل لنا الحياة الأبدية السعيدة ، فاننا نستطيع أن نقول بعد ذلك مستعينين على هذا لتحقيق السلوك الناجع **الصراط المستقيم** فبعد البذل والجهد ، والاتجاه الرشيد فى حياتنا ، نلتفت الى الله جل وعلا ونطلب منه الهداية أن يهدينا الصراط المستقيم ، وقد فسر كثير من العلماء الصراط المستقيم ، صراط محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم قال تعالى : **الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** وبذلك فاننا نكون قد اهتدينا ، واتبعنا سنن الرشاد وتحولنا عما كان عليه المجرمون الضالمون لانفسهم ، والباغون فى حياتهم .

تلك هى الحقائق الاسلامية التى يمثلها الروح الدينى ، وهذه هى مصادرها ، فهى الكتاب والسنة ، وعمل الرسول وصراطه وسبل المصلحين ، أما تطبيق ذلك على السلوك ومحاولة تحقيق

جدوى هذه المعرفة للاسلام ، فان ذلك يكون فيما نأتيه من أعمال فالعمل الصالح الذى نعتبره قربى ووسيلة الى الله ، وفى العمل الآخر الذى حذرنا الله منه ونهانا عنه رسول الله (ص) أمرنا بالخير ، والهدى ، والصلاح ، ونهانا عن الشر وعن سبله ، فاذا كان عملنا مثلا ، فى العبادات الدينية ، فى الصلاة التى نتقرب منها الى ربنا صالح ، وسلوكنا عبادة ، فان العبادات نفسها تقتضى منا ملاحظة ومراقبة ، اذا كان الروح الدينى مسيطر على نفوسنا ، ففى الطاعات نجد النبى (ص) يفرق بين المسلم والكافر ، ويميز بين الهداة المهديين والضالين المضلين بقوله (ص) **«بين المسلم والكافر ترك الصلاة»** ، ولا يقف التوجيه النبوى الكريم عند هذا الحد ، بعد بيان حقيقتها ، وشروطها ، وأركانها ، وأسبابها ، وأشكالها ، بالوضع الذى تعلمناه من سيرته النبوية الرشيدة ، وبقوله (ص) **«صلوا كما رايتمونى اصلى»** .

فنجده (ص) مع ذلك ينبهنا الى ما فى الصلاة من خيرات ، وما فيها من بركات ، فهى نقاوة للمؤمن ، وطهارة للضمير الانسانى ، وكمال فى النفس ، وبعد عن كل المضار والاوشاب والادران التى تتعلق بالنفس ، لذلك قال (ص)فيما رواه مسلم عن جابر رضى الله عنه : **«مثل الصلواة الخمس كمثل نهر بباب احدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات ، فما ترون ذلك يبقى من درنه ، قالوا : لا شئ. قال (ص) : فان الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن»** فهذه النقاوة انما سببها أن الذى يأتى ليقوم بوظيفة الصلاة فى الصباح ، فى صلاة الصبح أو الفجر ، يتهيأ لذلك بالوضوء ثم يقف بين يدى ربه يناجيه ، ويدعوه مخلصا ، ويقوم بامتثال أمره ويتقرب اليه فاذا ما وفى بواجبه الدينى ووفى لعمله اليومى ، وأراد أن يعود عند الظهر للصلاة ، فانه يخشى أن يلقى ربه فى وقفته الثانية ومناجاته الموالية ، وقد أتى شرا فيما بين الصلاتين ، لذلك فان الصلاة الثانية ينبغى أن تدرأ ما فى النفس من أدران أن تطهر النفس من ادرانها ، وأن تبعد عنها ما يلوثها من أوساخ ، وأن تجعلها مراقبة لحق الله فى كل الحالات والاوقات التى تكون بين الصلوات ، ثم نجد فى الصلاة سندا قويا عظيما ، ذلك أن المؤمن يكون أقرب لربه من أية حالة اخرى، حين يكون فى صلاته ، لقوله (ص) فى الحديث الذى يرويه مسلم

أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه : «**ان أقرب ما يكون العبد من ربه تعالى ان يكون ساجدا**» فهذه الحال من القربى ، هذه الحال من القرب من الدنو من الله ، تجعله شاعرا بطمأنينة وبراحة ، وبقوة تمكنه من القيام بواجباته على أكمل وجه ، مع بعده عن كل الشرور التى يمكن أن تحيد به عن الطريق السوى ثم نجد فى الصلاة مناجاة وذكرى ، وهذه المناجات التى هى أحب شىء الى العبد حين يكون مع ربه ، لا يمكن أن تتحقق اذا كان فى هذه الحركة بصورة آلية لا يفقه لها معنى ولا يراقب فيها نفسه ، لأن المصلى حين يناجي ربه ويخاطبه ، لا يمكن أن يكون لكلامه أثر فى نفسه ، اذا كان هذا الكلام صادرا عنه آليا مع الغفلة عن حقيقته وعدم الادراك لفحواه ، هذه صورة أوردناها فى عبادة وركن من أركان الاسلام ، وهى التى تكملها وتصورها الآية القرآنية الكريمة حين تقول : «**ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر**» ومثل هذا يلاحظ فى غير هذا الركن من أركان الاسلام ، فى الزكاة ، وفى الصيام ، وفى الحج ، وما أستطيع ابدا أن أحدثكم عن كل ذلك وقد ضاق الوقت ، ولكن أنتقل توا الى عنصر آخر ، أعتبره ضرورى فى هذه الحلقة ، لانه لا يتصل بالاعمال الصالحات ، ولكنه يتعلق بالاعمال الاخرى التى يدفع اليها الانسان بطبيعته ، وينبغى أن يكون من نفسه رقيبا عند اتيانها ، وذلك هو المضار والعيوب التى قد يتعلقها البشر ، فى سلوكهم الفردى وسلوكهم الاجتماعى وما بينهم وبين الله ، وما بينهم وبين الناس ، فاذا فكر المؤمن وراى انه سيقع لا محالة فى الخطيئة أو وقع بالفعل فى الخطيئة ، فان عليه ان يعمد الى سبل اخرى ، تكون بها يقضة الروح الدينى ، ويكون بها الخلاص مما وقع فيه ، وذلك فى الرياضة النفسية والتهذيب للاخلاق ، والمعالجة لأمراض القلوب ، معالجة أمراض القلوب لان الشارع أمرنا بذلك ، أمرنا بتزكية نفوسنا ، فقد قال تعالى : «**قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها**» ، والنبى (ص) أمرنا بان ناخذ بالسبيل الارشد فى سلوكنا الاجتماعى ، وفى سلوكنا الفردى ، ولذلك **قال (ص) : «الا ان احبكم الى واقربكم منى مجالس يوم القيامة الموطؤون اكنافا ، احسنكم اخلاقا ، الذين يالفون ويؤلفون ، وان أبغضكم الى وابعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون**» ، ثم نجد أن النبى (ص)

قد حملنا على الخلق الحسن بهذا الحديث النبوى الشريف وحرضنا عليه ، ونبهنا الى ما فى الخلق السيء من الامراض والادواء التى تميت القلوب وتميت النفس ، وتميت الامة جمعاء ولذلك يقول أبو حامد الغزالى فى كتاب الاحياء عندما أراد أن يعرف لنا الخلق الحسن والخلق السيىء ، الخلق الحسن صفة سيد الملسلين ، وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة المجاهدة للمتقين ، ورياضة المتعبدين ، والخلق السيئة هى السموم القاتلة ، والمهلكات الدامغة ، والمخازى الفاضحة والرذائل الواضحة ، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين ، المنخرطة بصاحبها فى سلك الشياطين،أما ثمرتها فانها تتجلى لنا فى كون الخلق الحسن ، من الابواب المفتوحة الابواب المفتوحة من القلب الى نعيم الجنان ، وجوار الرحمن ، والخلق السيئة هى الابواب الى نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة ، ولذلك يكون من الحتمى علاج القلوب، ومن الحتمى علاج النفوس، من أدوائها وأمراضها ، فان الاخلاق الخبيثة أمراض القلوب ، وأسقام النفوس الا أن المرض يفوت حياة البدن وأين منه المرض الذى لايفوت الا حياة الجسد ، ومهما اشتدت عناية الاطباء بضبط قوانين العلاج للابدان وليس فى مرضها الا فوت الحياة الفانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج لامراض القلوب ، وفى مرضها فوت حياة باقية أولى وأوكد ، ولذلك يكون على المسلم فى سلوكه الذى يستمد من روح الايمان هذ الطاقات أن يقدم بأعمال كثيرة فيما يأتيه من أعمال فى دنياه ، هى :

أولا : المشارطة ،

وثانيا : المراقبة ،

وثالثا : المحاسبة ،

ورابعا : المجاهدة .

المشارطة بأن يبيع نفسه لله ، وأن يتحلى بتقاه ، وأن يلتزم الحق والخير والجمال فى كل ما يأتيه من أفعال ، وأن يعتبر الحياة الدنيا ومتاعها قليلا ، وأن يعتبرها فانية ، وانها لا يمكن أن تدوم ، وأن من الخير أن يتعلق بما هو دائم ، وبما هو باق ، لقول الشاعر :

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

أما المراقبة فهى التى أوصانا بها جبريل على لسان الملك الحق، ثم أمرنا بها نبينا (ص) حين قال فى تفسير الاحسان : «**أن تعبد الله كأنك تراه ، وان لم تكن تراه فانه يراك**» ، فلنجعل الله مراقبا لاعمالنا ولنجعل الايمان قائما على نفوسنا يهديها سبل الرشاد ، ولكن فيما نأتى ونذر مراقبين لحق الله ، فى تصرفاتنا ، وفيما نقوم به من أعمال لانفسنا فى كل ذرة من ذرات وجودنا ، وفى كل شىء من أشياء هذا الوجود ، ثم هناك المحاسبة وهى أن نعود الى أنفسنا باللوم والتقريع والرجوع الى الحق والتوبة والانابة ، ثم التمسك بحبل الله المتين وما ذلك الا لان هذا القلب الذى يحركنا الى الخيرات حينا ، ويدفعنا الى الشرور أحيانا ، الذى يميل بنا الى الطهر والصدق والخير مرة ، ويتوجه بنا ويلح علينا فى أن نرتكب الشرور مرات كثيرة ، لكون الشرور من أنفسنا ولكونها شهوات ، ولكون النار حفت بالشهوات ولكون الخير من الله ، ولكونه ـ أى الخير ـ حف بالمكاره ، ولكون الجنة حفت بالمكاره ولذلك فان تطهير النفوس ، يكون بمراقبة النفس وتطهير القلب ، الذى اذا صلح ، صلح الجسد كله ، واذا فسد فسد الجسد كله ، هذا القلب الذى هو فى طريقنا الى الله مركبه البدن ، وزاده العلم ، فما يزيدنا ذلك الا بوجوب مراقبة جوارحنا وتحكيم علمنا أو معرفتنا بالله ، وهذه الاشياء التى اعتبرها ضرورية ، اذ لا يمكن أن تتحقق ولا أن تثمر فى نفوسنا ، وأن توجهنا سبيل الرشاد الا اذا عاد المسلمون ، وهو والحمد لله أمر واقع ملموس فى مجتمعنا هذا ، وفى كل المجتمعات الاسلامية اليوم ، اذا عاد المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها بعد الويلات التى نزلت بهم ، والهزات التى أذلت نفوسهم ، والثورات الجامحة التى أخرجتهم مما كانوا فيه الى ما صاروا اليه ، ينبغى أن نكون شاعرين بالوضع الخطير الذى نحن عليه ولا يكفى هذا الشعور ، بل ينبغى أن نتساءل عن السبيل الموصل الى تحقيق الغد الافضل وما تلك السبيل فى اعتقادى الا سبيل مراقبة السلوك الفردى والاجتماعى ، مراقبة تجعلنا نعيش دنيانا وديننا ، ولا نعيش دنيانا معرضين عن ديننا ، أو ديننا فى الصوامع وفى المساجد معرضين عن دنيانا ، لكوننا نريد أن نجمع بين الدين والدنيا .

والذى هو قادر على بذل هذه الحقيقة فى النفوس وتنميتها فى الشباب الصاعد فى الجماهير الغفيرة ، انما هى الدعوة الى الاسلام

الدعوة الجديدة الى الاسلام ، والدعوة الجديدة المركزة على العلوم الاسلامية ، والتى والحمد لله نجد اليوم وزراء التربية فى البلاد الاسلامية، وزراء التعليم فى البلاد الاسلامية، يلتفتون اليها ويقدرونها حق قدرها ، ويريدون بعد ذلك النماء لها ، والاثمار ، واذا كان وزراء التربية فى الدول الاسلامية ووزراء التعليم الاصلى قد عنوا بهذا الامر الجليل ، واتجهوا اليه بكلياتهم ، وأخذوا يتدبرونه ويضعون الخطط لتحقيقه وتنفيذه ، فان جمعية الجامعات الاسلامية التى اجتمعت فى العام الماضى فى شهر سبتمبر بفاس المجيدة، والتى سيجتمع مجلسها قريبا فى تونس فى شهر نوفمبر تقوم أيضا على دراسة المناهج ، وبحث الاساليب والطرائق التى يعاد بها الى مجتمعاتنا الاسلامية الشابة مما تحتاج اليه من علوم زاهرة بهذا المدد الدينى ، ومن طاقات اسلامية تجعلها متصورة للروح الدينى ، وممتثلة له مطبقة لحقيقته ، وان فى الجامعات الاسلامية القديمة والحديثة مثل الازهر الشريف ، الذى قام بدوره على مر القرون ، حتى قال شوقى مبايعا له ، ومفاخرا به ، ومحييا لحقيقته :

قم فى فم الدنيا وحى الازهر * وانثر على سمع الزمان الجوهر

هذا الازهر الذى أمد البلاد الاسلامية بكل ما تحتاجه من علوم وبكل ما تحتاجه من كتب ، وبكل ما تحتاجه من طاقات ، هى الآن كما يقال البقية الباقية التى نحتفظ بها لبناء مستقبلنا الجديد، وقد تحول الازهر وتطور ، ونرجوا أن يكون فى تطوره ونحوله مباركا مثمرا يانعا ، كما كان غرسه بالامس ، وجاء من بعده كثير من الجامعات الاخرى الاصيلة مثل القرويين ، التى قامت بدورها الخطير ، فى بث العلوم الاسلامية ، وتركيز الحقيقة الايمانية ، والحفاظ على القومية الاسلامية فى بلاد المغرب الذى صال فيه الفرنسيون وأرادوا بالظهير البربرى أن يقسموا جماعته ، وكانت جامعة القرويين هى المتصدية لذلك والمانعة لهم ، ثم نجد بعد ذلك الجامعة الاسلامية الفتية فى المدينة النبوية الشريفة والتى تقوم بدورها الخطير لتحقيق هذه الامجاد الاسلامية ، بالنسبة لغدنا الافضل ، وجامعة اسلامية فى ليبيا القطر الشقيق التى لها من يمثلها فى هذا الحفل البهيج والتى تقوم على خدمة العروبة والاسلام ، بما تحققه من رسالة خالدة فى هذا البلد الاسلامى الكريم ، ونجد الى جانب ذلك الزيتونة ، الزيتونة التى

ابتدأت رسالتها فى القرن الثانى الاسلامى ، والتى استمرت مضطلعة بهذه الرسالة فترة بعد فترة ، وطورا بعد طور ، ومرحلة بعد مرحلة ، حتى اذا قيل أنها انتهت من القيام بدورها ، وافل نجمها ، عـادت مشرقة كما كانت بالامس ، تؤكد تلك الحقيقة وتضطلع بالرسالة الثقيلة التى حملها المسلمون الصالحون من قبل .

وهذا التعليم الاصلى فى كل قطر ، وفى هذه البلاد المباركة ، فى هذه البلاد التى ثارت على الظلم ، وثار تعلى المكر ، وثارت على الشر وشقت سبيل الخير فى هذه البلاد الجزائرية الشقيقة التى هى منا ونحن منها ، والتى لا نكـون فيها الا خادميـن لرسالـة الاسـلام ، ومؤيدين لدعوة الحق التى صدرت من أخينا معالى الوزير فى خطابه الافتتاحى لهذا الملتقى ، الذى دعا فيه الى الانية والاصالة للتعليـم الاسلامى وللشخصية الاسلامية ، فى هذه البلاد الجزائرية ، واذا كان أبناء عبد الحميد بن باديس رحمه الله ، وتلاميذ المرحوم البشير الابراهيمى رضى الله عنه ، قد تحملوا هذه الرسالة ، وتلقوا هذا المشعل ، وتخرجوا من الزيتونة ومن غيرها من الاقطار ومن الجامعات الاسلامية ، وتقلبوا فى البلاد الاوروبية ، يتطلعون الى الخيـر والى الطاقات الجديدة ، التى يمكن أن تشد أزر المسلمين ، وأن تسـدد خطاهم فنجد بعد ذلك تفتحا الى التعليم الاصلى الجديد ، الذى هـو أصلى بالاعتبار الذى شرحناه ، والذى يفسره ما قلناه فى محاضرتنا السالفة ، عن حقيقة الثقافة الاسلامية المشتركة التى تجمع بين خيرى الدنيا والآخرة، فاذا وجد هذا التعليم، وزكت مناهله، وعذبت موارده واستطاع الناس بعد ذلك أن يقرأوا منه ، فان الروح الدينى لا محالة بعد ذلك يفيء وان المصادر الاسلامية لهذا الروح الدينى لا محـالة ستكون بين أيدى الناس يتفهمونها ويستمدون منها ، ويستعينون بها على قضايا الساعة ، وان فى مراقبتنا لانفسنا ، ومراقبة المسؤولين للأمانة الملقاة على أعناقهم ، ومراقبة كل فرد منا لحق الله فى ذاته وفى المجتمع من حوله ما يكفل لنا العزة القومية ، ويعيد لنا السيادة السياسية ، ويتكفل بتحقيق الحضارة الاسلامية الجـديـدة ، التى سيكون أبناء الجيل الصاعد هم الذين يحملون مشعلها ، وهم الذيـن يحققونها فى هذا المجتمع الانسانى الكبير .

والسلام عليكم ورحمة اللــه .